في العشق

مختارات من القص العربي المعاصر

فـي العـشــق

في العشق – مختارات من القص العربي المعاصر
القصص الحائزة على جائزة أدب العشق ٢٠٠٩
مجموعة قصصية

الغلاف : هانيبال – هيبو

الطبعة الأولى / القاهرة ٢٠٠٩
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٨٥٩
ISBN: 978 – 977 – 6299 – 12 – 2

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية
Sphinx Agency © 2009

في العشق

مختارات من القص العربي المعاصر

القصص الحائزة على جائزة أدب العشق لعام ٢٠٠٩

حمروش الدكر

محمد ناجي

أنا حبيب الله الدّكر.

"الدّكر" في الأصل اسم مقهي **"قهوة الدّكر"**، كل من جلس عليه لخدمة الحريم أسماه الناس "الدّكر"؛ حمروش الدّكر، عياد الدّكر، سرماح الدّكر. كل واحد جاء من مكان غير المكان ومن أصل غير الأصل، لكن كله عند الناس "الدّكر".

أنا من سلالة حمروش، حمروش الدّكر، أشهر من جلس علي المقهي في زمانه، لكن أصابه خبال العشق في أواخر أيامه، ربك يحفظنا.

المقهي كان هنا، وكل الدنيا ابتدأت من هنا. و**جدّنا** كان صاحب الأريكة العالية. إذا قعد؛ دكة لباسة ترباس علي باب قلعة، وإن نهض للوعد يرّف طرف الشال الحريري علي كتفه، كأنه راية السلطنة. تشهق وراؤه العيون.

في الشال ورود بعيون، سهرتْ عليها الإبر ليالي طويلة تطرزها، لكل عين شكل، ولكل نظرة اتجاه، والورود ألوان، وكل لون من أوله لآخره؛ الأحمر لآخر حمرته، الأخضر من أول الإخضرار.

وكان.. وكان..

كان المقهي خلف أسواق للذهب والحرير والكتان. بعض النسوان يتسترن بالأسواق، ويتسللن إلي المقهي ليواعدن الرجال.

كل ذكر جالس علي أريكة وحده كأنه السبع في عرينه، و**جِدّنا** وسطهم في أعز مكان، جنب الزير والكوز وشجرة الخروع، أعلي من الكل، وأغلي من الكل. كل ليلة يوفي وعده، وصاحبة الوعد تشكره وتزيد أجره، ثم تصرفه قبل أن يصيح ديك الفجر، وتسأله علي عتبة بيت الستر:

ـ لو صادفْتني مرة أخري، هل تعرفُني من بين النسوان؟!

يبتسم للكلام، ويمضي لحاله.

كل ليلة وجه جديد؛ رسم غير الرسم، واسم غير الاسم؛ سميحة.. مديحة.. صبيحة، لكنه يسمع نفس السؤال:

ـ لو صادفْتني، هل تعرفني من بين النسوان؟!

ليلة بعد ليلة لَفَتَ السؤال انتباهه، صار يتمهل في رواحه بين البيوت والشجر، ويفكر في السؤال الغريب، مع آذان الديكة وتسابيح الفجر.

***

ليل بعد ليل بعد ليل، وفي آخر الليالي جري له أمر غريب.

دخل علي سرير الوعد يزأر كما الأسد، برم شاربه ومدّ يده ليشق القميص ويكشف اللحم، كانت هذه طريقته المميزة. لكن في تلك الليلة ظلت يده ممدودة في الفراغ، المرأة قريبة من العين لكن بعيدة عن اليد، وكلما يقترب تبتعد.

ساعة، ساعتان، ثم كفّ عن المحاولة. حط عمامته علي رأسه، ولبس لباسه ومداسه، وانصرف قبل منتصف الليل.

وصاحبة الليلة علي سرير الوعد تتقلب وتضحك لنفسها، لا قامت تودعه علي الباب، ولا سألته السؤال الذي سمعه من كل واحدة قبلها.

ست ليال وهو يتعجب مما يجري له، يذهب للمواعيد ويرجع بناره، وما حدث آخر ليلة يتكرر كل ليلة، وصاحبة الوعد لا تقترب ولا تسأل، وهو يرجع للمقهي، يطأطئ رأسه أمام معلِّمه، ويرد الفلوس.

في الليل السابع غلبته الظنون. نسي لباسه ومداسه في بيت الوعد، وانصرف فزعا عريانا، وما علي جسمه غير العمامة الملفوفة بالشال الحرير. دار في الشوارع يفكر، ولما تعب نام علي الأعتاب، وفي منامه رأي وانكشف الحجاب.

رأي صاحبة الليلة واقفة علي رأسه، رمت فوقه لباسه ومداسه، وقالت له:

ـ كانت هذه آخر الليالي بيننا.

قال لها وهو نائم:

ـ ليلة ومرّت.

قالت له وهي صاحية:

ـ كانت لياليا كثيرة، ليلة بعد ليلة وأنت ما عرفتني.

قال لها وهو نائم:

ـ لا أتذكر أنني رأيت هذا الوجه قبل هذه الليلة.

قالت له وهي صاحية:

ـ عيبك أنك تهتم بالتذكر، ولذلك لا تعرف.

وكشفت سرها:

ـ أنا سميحة ومديحة وصبيحة وكل امرأة واعدتها، جئتك

بألف اسم ورسم، وأنت ما عرفتني.
ـ أنتِ غيرهن.
ـ أنا كلّهن، ولو عرفت لفزت.
الآن فهم، الجنيّة.

***

جدى حمروش لم ير الجنيّة بعينيه، لكنه أحس بها في نفسه، كان نائما يتقلب بين الأعتاب عريانا، وما علي جسمه غير العمامة وأوراق شجر نثرها نسيم الليل، وتحت سرته حمامة متعبة، فردت جناحيها ونامت بين فخذيه.

أحس بحضورها هالة تتفتح فوق رأسه، ففتح عينيه في الحلم، وكلمها وكلمته؛ هو نائم، وهي صاحية.

تقلبت في الهالة كل وجوه النساء التي رآها، ومع اختفاء آخر لقطة كلّمته من الهالة الفارغة:

ـ كانت هذه آخر الليالي بيننا.

ناداها وتاه في الأسماء:

ـ يا سميحة .. يا مديحة.. يا صبيحة..

ينادي والهالة الفارغة تتسع فوق رأسه. ظلت تتسع وتتسع حتي أطل منها الفجر وانكشفت الدنيا، وترددت أخلاط التسابيح وصيحات الديكة في أرجاء السماوات. قام وفي شفتيه بقايا نداء:

ـ يا هي..

***

قام من منامه يتطوح من الحيرة وسط صياح الديكة وتسابيح الفجر. ذهب لمعلمه فوجده نائما علي باب المقهي، هزّه في رقاده، واستأذنه في الكلام، وجلس علي أريكته ينتظره حتي

قام. ولما قام ركع علي رجليه وباح بما جري له.

سمع المعلم كلامه وقصة منامه، ثم نظر للفضاء المضئ وسأله:

- الفجر بان؟

- طلع وبان من زمان يا معلم.

سحبه المعلم من يده إلي خارج المكان، ثم ربّت كتفه على وقال له:

- اسمع يا ابني : طريقك الآن غير طريقنا، فاذهب لحال سبيلك، الله يفتح عليك.

***

بعد ليلة الجنيّة، تاه **جدنا** حمروش. رمي صرّة هدومه خلفه، ودار في الشوارع والأسواق وما علي جسمه غير العمامة والشال الحريري. يبحث عن الوجه الذي لم ينكشف له، يقلب نظراته في كل امرأة تصادفه، ويسألها:

- هل أنت هي؟!

تضحك النسوان من عريه، وتفر الوجوه من طريقه، وهو يحجل خلفهن وينادي:

- ياهي..

بعد الغروب يسمع صوتها يناديه:

- يا حمروش..

في النداء ضحكة تتقلب في نسيم الليل. تفر أمامه من نسمة إلي نسمة، وتُدحْرِجه من حال إلي حال. يفرح وهو يتعثر في عتمة الأزقة، ويلهث وراء الصوت:

- ياهي..

جاع **جدنا** حمروش ونام فى العراء. أكل من فضلات الناس، وشرب من حُفَر الطريق. كان يتتبع النساء فى الأسواق باحثا فيهن عن وجه الجنية، أو يتوه فى الشوارع باحثا عن بيوت كانت قد فتَحت أبوابها له يوما، لكنه لا يجد لها أثرا. لم يعرف أنها كانت بيوتا مسحورة. يركع ويبكى على الأعتاب:

ـ أين أنت يا هي؟

أحيانا يطادر امرأة فى ظلام الأزقة، يحجِلُ خلفها عاريا متساندا على جدران البيوت، ويتْبعها من عتمة إلى عتمة.

أحيانا كانت نساء تضعن أنفسهن فى طريقه، يلتمسْن البركة. وهو يفر من وجه إلى وجه، وكأن الجنية حرَّمته على نفسها وعلى غيرها من بنات الإنس. يهرول فى شوارع الليل الخالية تائها فى تقلّبات البصر، ومتوسِّلا للهالة الفارغة المعلّقة فوق رأسه:

ـ نظرة !

يغلبه الحال فيبكى من الشوق، يبكى ويمسح دموعه بشال العمامة.

فى الشال ورود بعيون، و**جدنا** يبكى ويسكب دموعه فى عيون الشال، وكل عين تضحك وتشرب دموعه، تشرب وتضحك عليه.

في آخر الأيام تاه **جدنا** حمروش، تاه حتي عن نفسه، وصار لا يعرف أهو ذكر أم أنثي. وضعفت عيناه فصار لا يعرف مَنْ حوله، وانحني ظهره، وصار متاحا لكل عابر سبيل. كان يجرّ نفسه جرّا، وهو يقلّب بصره الكليل في الوجوه التي تمر به، ويولول علي الطرقات:

- يا هي.. يا هو.. يا هي..

وكل ليل يطوف حول السور في انتظار الفجر، ويسبّح:

- البحر واحد، والسمك ألوان !

فى آخر الليل يصعد سور المدينة فوق **باب الفتوح**، يطرق أبواب الليل من كل الجهات، ويترنَّم بتسابيح شوقه فى انتظار الصبْح. كل صباح جديد يطلع بوجه جديد، لكنه يعيد الدور. وآخر كل ليل يبدأ **جدنا** حمروش تسابيحه من أوّل:

- يا فجر يا كذاب .. يوم بعد يوم توعد، وتنساني.. يا فجر هات العمر من تاني، ووفّ الوعد يا كذاب ولو مرّة.

البحث عن ملكة

محمد العشري

وقفت السفينة في الميناء الذي لا نعرفه، لا نعرف أهله، نزلنا مبهورين من تلك الرائحة النفاذة التي اخترقت أنوفنا، رحنا نتجول في أزقة وشوارع المدينة الصغيرة، وجدنا الدخان يتصاعد بقوة ويلف أدمغتنا، تحركنا كالطائرين في الهواء في اتجاه يبعدنا عن الميناء، صعدنا إلى تلّ بدا من بعيد كفوهة بركان قديم.

في الطريق كنا نرى ذلك الدخان يتلوى ويتموج في السماء كبخار يتصاعد من مرجل عملاق، كانت عيناي مشدودتين إلى تلك النقطة البعيدة التي في السماء، المشعة في وضح النهار.. رحت أنظر حولي فلم أجد الرفاق، اندهشت، حاولت أن أعود، لكن قدميَّ دفعتاني في اتجاه التلّ.

ما أراحني أنني نظرت ورائي، وجدت السفينة ما زالت واقفة، أدركت أنه ما زال هناك الكثير من الوقت كي أتجول في تلك المدينة التي لم أعرفها من قبل.

حين وصلت إلى التلّ رأيت ملكة في السماء تفتح لي أبوابها، الابتسامة على خديها، ففتحت ذراعيَّ عن آخرهما، انطلقت في اتجاهها.. انطلقت منفضاً عني كل ما تراكم بداخلي بفعل الزمن، أصبحت بدون قيود، طرت محلّقاً، أخف من

عصفور، أسرع من ريشة، أصعد في اتجاه الملكة برفق ونعومة.

*****

رأيت على الطريق الصاعد إلى التلّ رجالاً منهمكين في أعمالهم وتجارتهم، كانوا يبيعون، يشترون، يجمّلون بضاعتهم، من أوان فخارية ونحاسية وقماش وحرائر وأطعمة.. اندهشت منهم فكيف لا يرون ما أراه.. كيف لا يبصرون وجه الملكة التي في سمائهم..

أشرت إليهم بيدي أن ينظروا إلى هناك، إلى أعلى، حيث الملكة، لكن إشاراتي ضاعت بين نظراتهم الجامدة وانشغالهم عني.. شعرت باحباط شديد من عدم مبالاتهم، انطلقت مسرعًا في اتجاه التلّ، أحتضن الملكة بين ذراعيَّ، أنتظر اللحظة التي سأصل فيها إلى ذلك الدخان الكثيف، وتلك الرائحة النفاذة التي تخدر الحواس.

كالمهووس حملني قلبي، طار بي في رحاب **الملكة** التي ملأت السماء، فلم أر غيرها في تلك المدينة التي لم يعرفني فيها أحد..

لأنني غريب في تلك المدينة حاولت أن أفتح أبوابها .. أقف على أسرارها.

*****

لما رأتني **الملكة** هائماً في محبتها ساعدتني، سمحت لي بالدخول، أغدقت عليَّ من كنوز قربها، ارتويت وانتشيت، دخلت في ذلك الدخان الكثيف فطار عقلي من الخدر الذي غلبني.

حبست أنفاسي في داخلي، أغلقت عينيَّ على ما أنا به من نِعم، رجوت الله ألا أخرج مما أنا فيه.

*****

كم من الوقت مر.. كم من العمر انقضى وأنا هكذا .. لا أدرى ! .. فالأيام السعيدة لا ليل ولا نهار لها، كل ما فيها إحساس بالراحة والفرح، كأنك خارج الزمن.

*****

جلست في حضرتها، حكيت لها عما كان من أمري .. من حالي، عما مررت به في مسيرة حياتي..فتحت حقيبة أحزاني بين يديها، رويت لها ما لم أكن قادرًا على البوح به من قبل، ضحكت في وجهي، ربتت على ظهري، شفيت من حزني، تبخرت شجوني في ذلك السحر الذي يحيط بها.. سألتها:

- كيف لم يرني الناس في مدينتك؟!

.. ضحكت، قالت:

- أنت قادم لي وحدي.

روت لي ما كان من أمر أمها معها، حكت لي ما لم أسمعه من قبل .. كانت حكاياتها كالأساطير التي لم أعرف عنها شيئًا، كنت مندهشًا إلى أقصى حدّ .. بتشويقها .. طريقة سردها التي كانت تلقائية كأبرع ما يكون الحكي، الذي يصيب العقل والقلب في آن واحد.

*****

من قبل كان اهتمامي بالعِلم يحملني بعيدًا .. بعيدًا فيما وراء الواقع، كانت أمواج الحياة تعلو بي بسرعة، وتنخفض بأقصى

ما يمكن، كبساط تتقاذفه الريح هنا وهناك، لا أقدر على الثبات أو الإمساك بشئ واقعي يعيدني إلى الأرض.

*****

جلست فوق التل وشردت بعيدًا .. عاد رأسي إلى موطني، وجدتني كما أنا.. لا شئ تغير، لا شئ حولي سوى حكايات يتناقلها الناس بعيون دهشة، وملامح تعجب من ذلك الفتى الذي صال وجال في رحاب **الملكة**.

كنت هائماً وشاردًا لا ألقى بالاً لأحد .. أطير في مشيتي، كأنني لا وزن لي، لا قيد يلزمني بالركون إليه.

عدت إلى **الملكة** فوجدتها حائرة، مرتبكة .. سألتها عما بها فأمعنت في صمتها ثم فاجأتني بضحك هستيري، حاولت أن أُسكتها .. أقف على حقيقة
الأمر فلم تستجب.

رأيت الضحك وهو ينتشر مع الدخان، يصعد إلى السماء، رأيت المدينة كلها تضحك وراء ضحك **الملكة** .. سمعت الجواري وهن يمسكن آلات الموسيقى، يعزفن ويغنين، رأيت جو المرح والحبور قد خيم على المدينة .. ملأ أزقتها وحواريها وشوارعها.

*****

أعلنت الملكة أنها ستُزف إليَّ في تلك الليلة، فأغمى عليَّ من الفرح، من وقع الخبر وسرعة إعلانه.

*****

بمجرد أن عدت إلى الوعي، لم أجد التلّ، لم أجد **الملكة**، لم أشم تلك الرائحة التي خدرتني.

وجدت السفينة التي بها أهلي ورفاقي في الميناء تتأهب للرحيل، وقفت على الرصيف أتأملها وهم يحثونني على الصعود إليها، وجدتني بلا إرادة مني أستدير إلى الخلف متجاهلاً نداء السفينة، أعود إلى تلك المدينة، أبحث عن طريق يؤدي إلى ذلك التلّ الذي لا أراه، أتبع تلك الرائحة التي ما زالت عالقة بصدري، أصول وأجول في الشوارع باحثًا عن **الملكة** التي لا أعرف الطريق إلى بيتها، ولا يعرفه أحد من الناس الذين قابلتهم في كل اتجاه سلكته.

*****

أصبحت أسيراً لما يمليه عليَّ هواي، باحثًا، ناسكًا، وزاهدًا، لعلي أعثر على ممر يؤدي إلى ذلك السرداب المليء بالأسرار في ثنايا القلب.

صلاة واحدة

سـها زكي

-١-

بعد أذان الفجر بساعة تصحو البنت الصغيرة تفرك عينيها، تفتحهما عن أخرهما وهي تطلع فوق السطح لتراقب أمها التى تنثر الطعام لطيورها وهى تكلمهم !

- لوقلق.. لقلقلق

تنظر البنت لضوء النهار النافذ من بين السحابات السوداء محتضنا بقايا ليلة صافية تراقب لمعة النجوم المنسحبة ببطء من حضن السماء تاركة للنهار فرصته، تسأل أمها:

- هاروح الكُتّاب أمتا

- لسة بدري يا **نوارة** ..أنزلي نامي ..أنت حفظت

- ايوا ..طب أنا هاجعد اسّمع شويا لغاية المعاد

- يا بتي دا لسه بعد صلاة الظهر، نامي شويا وجومي العبي مع العيال . تنزل البنت.. تجلس علي باب الدار وفي يدها لوح الإردواز الذي تكتب عليه اسم **"شادى"** بالطباشير وتمسح ما تكتب، وتلعب مع نفسها لعبة "الُكتّاب:"

- أه يا مولانا أنا حافظة أهوه، فتقرأ سورة "آل عمران" حتى أخرها وهي مغمضة العينين مقلّدة للشيخ بتمايلها يمينا ويسارا بسرعة ...

"شادى" هو الوحيد الذي تلعب معه دون الأولاد الآخرين وهو يمرّ عليها كل يوم ليذهب خلسة معها إلى الكُتّاب، وكل مرة يجلسان بجوار بعضهما ولكن مولانا يزعق فيهما :

- أنت يا واد.. أنت والبت جليلة الأدب دي، جوم أجعد جمب الصبيان يا أبن النصارى.

"شادي" شقي كالفتيان الكبار تمام، لا يكترث لسبة مولانا الغريبة ولا يفهمها من الأصل، فهو في عالم أخر، ينظر لـ **"نوارة"** بلمعة عينيه الخضراء، بعد أن طلع لسانه للشيخ في الخفاء من خلف أحد الزملاء، يبدؤن - جميعهم - في القراءة خلف مولانا، ويسّمعوا ما حفظوا ؟ -

- ٢ -

يبدأ الشيخ بواحد واحد، وكأنه علي ثأر معهم :

- أنت ياواد يا ابن "حزقيال" حفضت ولا أبوك خدك معاه علي الجهوة يشربك السم الهاري اللي بيطفحه ..

- حفضت يا مولانا ...

سمّع **شادى** كل ما حفظة تجويدا .. وبعده سّمع **أحمد** وهو يرتعش من عصا الشيخ وهو يتلعثم .. ضربه مولانا علي مؤخرته بعصاه وهو يقول له:

- مش مكسوف يابن الكلب .. المسيحي اللي يحفض وانت لا .

- يا لا يا **نوارة** يا بنت الغاليين .. سمّعي

سمّعت **نوارة** بهدوء وهي ناظرة في الارض وتهتز في القراءة .

- جدعة يا بت يا **نوارة** .. بس ابعدي عن الواد النصراني ده .

تنتهي الحصة ويجري الأولاد كل في اتجاهه

أما **شادي** و**نوارة** فيتجهان لبعضهما ببراءة وبلا إعتبار لكلمة الشيخ الغريبة.. **شادي** يقلد أباه في كل شيء، فهو يذهب لـ "جوزته" بفحمها المنطفيء وهو غائب يختلس منها أنفاس واهمة ويقف وسط عيال القرية يزعّق فيهم كما يزعق أبوه فيهم، ويعطي لكل منهم دور، وكلما قام بفعل شقى، يجري لـ **نوارة** ليخبرها بما فعل، ويجلس مختبئا في انتظار العقاب وهي بدورها، تدفعه للخوف أكثر، فمولانا يقول:

- اللي بيعمل حاجة غلط بيخش النار ويتسخط قرد.

وكانا الاثنان يصدقان كلام مولانا جدًا .. فيختبئ حتي يمل و**نوارة** تساعد في إخفائه، فالدار بجانب الدار وكل الأماكن المتاح الاختباء بها هي السطح أو الغيط أو الزريبة...

-٣-

بعد صلاة العشاء وبعد دخول أبو **نوارة** من أمام الدار وذهاب **أبو ماهر** لداره ... سحب الجوزه في يده وجلس في قاعة الدار ... جاءت **نوارة** صامتة وقفت أمام أبوها وهو يلاغيها ..

- أيه يا بت يا **نوارة** عاملة آيه في الكُتاب يا شقية...
- يعني آيه نصراني يا آبا
- أنتِ بتسألي ليه يا بت علي الحاجات دي
- أصل مولانا بيجول للولا **شادي** " يا ابن النصارى "

- أمّا مولانا دا راجل خسيس، النصارى ليهم نبى واحنا لينا نبي، ومفيش بينا وبينهم أي فرج في أي حاجة، **شادي** واد طيب زي أبوه، أوعاكِ يا بت تجولي كدا لأي حد من العيال النصارى... وسيبك من ولاد الكلب اللي بيجولوا إن دي شتيمة والا حرام تكلّميهم، وردي عليهم وجليلهم أبويا جالي كدا .. احنا كدا زي ما نكون ولاد عم !

- حاضر يا ابا

تجري **نوارة** ناحية بيت **أم ماهر**، تنده عليها .

- أما **أم ماهر** .. فين شادي

- خوشّي يا **نوارة** تعالي كلي معانا وابجي جومي أنت و**شادي** العبوا

- أزيّ أمك وأبوك وأخواتك، جولي لامك أنى زعلانة منها عشان ماجتش تشوف **عزت** لما وقع الاسبوع اللي عدي .

- حاضر يا امّا

شادي يقوم مسرعا من على الطبلية وهو يقول لها: أنا أكلت يااما

ويأخذ **نوارة** من يدها ويجري بها علي السطح .

- مش أنا سألت أبويا النهار ده يعني ايه "نصراني" وجال يعني مش حاجة عيب عشان مولانا يشتمك بيها وجال أن مولانا دا جاهل ما بيفهمش حاجة .

- أنا مش زعلان أن مولانا بيجول كدا مش مهم، أنا بازعل م العيال اللي بيجلّدوا مولانا .

تطبطب عليه : - متزعلش يا **شادي** أنا عمري ما هاجولك كدا أبدا وبعدين دي عيال هبل، ما الواد العبيط ابن عم **رشدي**

بيجولك كدا وهو نصرانى زيك ؟ ! وبعدين أبويا جالي أن احنا كدا ولاد عم، باجولك ايه، تعال نجولهم ان احنا الاتنين جرايب ومش جايلين لحد، تعالي يا لا.. دلوجتي.

ذهبا **نوارة** و**شادي** للأولاد في الشارع، وعندما رآهم الاولاد والبنات، قالوا لها:

- مش مولانا جالك ابعد ي عن الواد دا

ردت عليهم بميوعة وكبرياء طفولى وهي تتمايل وتكيدهم :

- أصل مولانا ميعرفش ان احنا جرايب

- جرايب ازاي يا **نوارة** دا دينه غير دينك

- والله العظيم احنا جرايب وكمان يبجي ابن عمي، حتي هاتشفوا أبويا جاعد كل يوم مع أبوه جدام الدار عندنا وكمان دارنا جمب دارهم عشان جدي جالهم متبعدوش عن بعضيكم ومتخلوش حد غريب يدخل بنتكم .

- انت بتتكلمي ازاي يا **نوارة** ...انت بتحلفي بالله، حرام .. ربنا هايوديكي النار، احنا غيرهم، ازاي عمك يبجي مسيحي .

- انتم مش مصدجين طب راجبوا الدار دي والدار دي وانتوا تشوفوا ان احنا جرايب جاوي كمان .

واخذت **شادي** في يدها ومشيت : - .يلا يا **شادى** زمانتهم في الدار عايزينا .

وهي تنظر للأولاد بفخر بنصف عين وهو رافع راسه وهو يقول : - هأ...هأو ..

-٤-

سأل الاولاد أهاليهم عن حقيقة هذه الرواية التي روجتها **نوارة** .. الأهالي بالطبع يكذبون الأولاد وما سمعوه، لكن

الأولاد اقنعوا أنفسهم وصدقوا، وبعض الكبار أعتقدوا في حقيقة الشائعة، بل واخذوا يبنون في عقلهم روايات عن كيف تحول أحد الاخين لمسلم والآخر مسيحى ؟!

كل هذا وأهل الولد والبنت لا يشعرون بسريان هذه الشائعة الغريبة، ولا يتعجبون لما يبدر من الناس، فان رأوا أبو **نوارة** وحده يسألونه عن **أبو ماهر** وأن رأوا **أبو ماهر** وحده سألوه عن أبو **نوارة** ولم يعد يدهشهم أن يروا احدهما متجه إلي دار عبادة الآخر وأصبح **شادي** و**نوارة** اولاد عم بشهادة كل الناس ومولانا أصبح ينادي الاثنين .. "انتم يا ولآد الكفرة" فتصديقه للرواية الشائعة أصابة بصدمة غريبة .. فما هذه العائلة الغريبة ؟!

يذهب **شادي** مع **نوارة** وامها إلي الجامع ويقف خلفهم يصلي معهم وتذهب **نوارة** مع أم **شادي** إلي الكنيسة وتصلي معهم .. لم يشعر أي منهم بغرابة فيما يحدث ولا حتي الأهالي اكترثوا لما يفعل الأطفال الأشقياء مع أطفال القرية ومع أنفسهم .. لم يقلق الأهل حتى الأن من لعب الولد مع البنت فوق السطح والدارين مختلطين تماما ببعضهما .. يكبرا .. بدأ يغار **شادي** علي **نوارة** من الأولاد فيأخذها وينزويا كثيرا في الغيطان وبجوار الترعة ليلا ليراقبان القمر وهو يظهر ويأخذ كل منهما في تخيل شكل للقمر ولمن ينظر، وهل هو اليوم مبتسم أم بائس .. متخيلان الحكايات التي تتسبب في فرحه أو عبوسه، وغالبا ما تكون الحكايات عاطفية فربما هو حزين اليوم لأن **شادية** بنت الحاج **ابراهيم** اتجوزت غير **سعيد** اللي كان بيحبها وهي بتعيط دلوقتي في سريرها الجديد، والقمر شايف **سعيد** وهو

ماشي في الغيط لوحده أو فرحان لأن "احنا مع بعض دائما وبيفرح بينا".

ذات مرة فوق السطح حاول **شادي** أن يقلد احد مشاهد فيلم عربي قديم، فاقترب من **نوارة** وقبّلها من فمها وهما يرتعشان، ثم احتضنها بقوة، وقال لها الحوار الذي حفظه خصيصا لها :

- حبيبتي انا مش هاقدر اعيش من غيرك ابدا .. والقدر زي ماجمع بينا عمره ما ها يفرقنا ابدا

صدقته بالطبع وبدورها هي الاخري عاشت دور البطلة، وقالت له :

- **شادى** .. المستحيل كلمة مش بتاعتنا احنا نهرب بعيد عن كل الناس ونعمل لنفسنا دنيا لوحدنا مفيهاش مستحيل !

- ياحبيبتي !

- يا حبيبي !

كان الصدق هو أساس المشهد بداية من القبلة وحتي حضن كلمة حبيبي .. صدّق الملعونان مشاعرهما الجديدة .

-٥-

شادي 14سنة و**نوارة** 13سنة .. **نوارة** جسمها كبر فجأة .. بـــدأ الأهل بالتشديد عليها .. ومسموح لها بالذهاب للمدرسة فقط بالمريلة الطويلة والطرحة التى تغطى شعرها، ولم تعد تري **شادي** كسابق عهدهما كانت الفرصة الوحيدة هي أن يجلس بجوارها في الفصل، وفي حصة الدين يخرج المسيحيين من الفصل وكأنه سيتم حدث غريب، كان كل ما يحدث للمسلمين أن يقرأ

عليهم مدرس الدين سورة بمنتهى السطحية ويترك الحصة بلا رابط وكان الأطفال يعتبروا هذه الحصة "فسحة ".. أما في الدرس المسيحي، فكان المدرس يلقي الدرس بهدوء يقترب إلي النوم، والأطفال في "تناحة" غريبة .. يعود المسيحيين للفصل وكأن شيئًا لم يكن، ولكن **شادي** و**نوارة** "في لهفة واشتياق، وزحمة الفصل تساهم في التصاق جسديهما في أحضان غير متعمدة .

ينتهي اليوم الدراسي ويعودا للدار سويا .. تدخل هي ولا تخرج إلا لأداء مهام توكلها لها أمها، فيحاول شادي أن يتحجج بأي سبب لرؤيتها ... استطاعا أن يصنعا لهما ميعادًا ثابتًا كل يوم بعد المغرب في برج الحمام فوق أي السطحين .

-٦-

هما الأن في المرحلة الثانوية، لم ينشغل أحدهما بشيء أو آخر إلا ببعضهما .. ورغم اكتشاف كلاهما لحقيقة الأمر وأنهما ليسا ذا قرابة، إلا أنهما استمرا في إحساسهما وفي طقوسهما المتبادلة كما أن أهلهما دائما ما كانوا يقولون لبعضهم البعض وهم يشاهدونهما يلعبان : "والله لولا الدين لكنا جوزنا العيال دول لبعضهما، العيال لايفين علي بعض زي الطير ياخوي " .. فكان الوليفان ينظران لبعضهما نظرة عشق ابدي بقرار حاسم بالزواج ؟!

-٧-

انهي **شادى** دراسته الثانوية وسينتقل لمصر ليبدأ دراسته الجامعية، لكن قبل أن يسافر كان لابد أن يضع حدّا لعلاقته بـ **نوارة** .. فسأل أبوه إن كان

باستطاعته أن يزوجه أياها، نظر له أبوه نظرة حادة وبصوت يملؤه الغضب :

- انت عبيط يا بني والاّ بتستعبط .. ايه اللي انت بتطلبه مني أنت مش عارف إن هما مسلمين واحنا مسيحين ...اكبر يا بني وروح جامعتك وانسي لعب العيال دا ...وبكرا ها تعرف بنات كثير أحلي من **نوارة** في مصر ...وهاتنساها خالص ...يالا يا **شادي** يا بني، لمّ هدومك وحضّر نفسك وخلى بالك من بنات مصر.

يائسا : - حاضر يا أبا

يسافر وهو حزين، تبدأ معه أيام جديدة وأفكار وأحلام وأشخاص جديدة، وكلما تعرّف علي أي بنت اخبرها عن بنت عمه نوارة المسلمة، وانه يحبها وسيتزوجها .. اشتهر الفتي بين الجامعات أنه الولد المسيحي اللي بيحب **نوارة** وهي بتحبه وأنه علي اقتناع بأنهما أولاد عم .

-٨-

اجتهدت لتدخل نفس كلية حبيبها .. هو يعيش في المدينة الجامعية وبعد جدال ونقاش حاد بين **نوارة** وأهلها في حضور جيرانهم **أبو ماهر** وأم **ماهر** والدي **شادي**، قاموا بتشجيعهم بكلام من نوعية : سيبوا البت تشوف مستجبلها واهو شادي معاها ويحميها في مصر، والعيال متربيه مع بعض وهايخاف عليها زي اخت" .. فسافرت على أن تعيش مع أقاربها في السيدة زينب.

سمارها قمحي وشعرها أسود طويل، فرعونة أصيلة في كل شيء طباع وشكل علي بركة الله، هانكلم **شادي** في التلفون

عشان أيخلى باله منيها لحسن دي بلد كبيرة ويتخاف علي الراجل فيها، ما بالك البت .

- ٩ -

استقبلها **شادي** بنظرة ورعشة إشتياق تلهب حواسه المتلهفة لحضن أبدى.. أوصلها لمنزل أقاربها دون كلمة واحدة، ومنذ هذه اللحظة الأولى
لوصولها لم يتركا بعضهما أبدا إلا علي النوم .

تأكدت كل الجامعة أن **نوارة** و**شادي** أولاد عم ومن يعرف أن **نوارة** مسلمة يربط بها **شادي** علي أنه مسلم ومن يعرف أن **شادي** مسيحي يربط به **نوارة** علي إنها مسيحية .. فهم يذهبان سويا إلى كل مكان سواء يخصه أم يخصها.. كعادتها يوم الجمعة وهو معها أيضا تذهب للصلاة، يقف بانتظارها علي باب الجامع، وهو يسمع آخر حديث الشيخ الذي يصلي بهم يختتمه بآية من سورة الأنفال :

"وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم"

وبعدها أقام الصلاة .. خرجت من الجامع بعد الصلاة بسبحتها البيضاء العاجية، يلهيها التسبيح والتكبير والتأمل، يسيرا من جامع عمرو في طريقهما إلى مترو الأنفاق حيث يمرا بكنيسة ماري جرجس، وتقوم بدورها فى انتظاره لينتهى من صلاته .. "تتأمل مبنى الكنيسة المذهل، وتدخل أحيانا معه تزور الكنيسة لتضيء الشموع أمام صورة المسيح وتتمني أمنية تكتبها بورقة، تزجها في صندوق الأماني لحبيبها ..

اليوم عيد والترانيم تبعث برعشة روحانية، كانت لا تفهم معاني الترانيم، فشعر **شادي** بها وأمام صورة ماري جرجس وعلي ضوء الشموع الكثيرة المزروعة في المكان نظر لعينيها كأنه مسحور، ويخبرها أنه لا يعرف ماذا يفعل في قلبه المختنق بحبها، انظري ماذا تطلب منهم، ينتبهان للترنيمة بآذنهم فقط وبدأ يرددا نشيد الإنشاد -الذي نزل لسليمان- بصوت هامس فى هالة الضوء النورانية التي كوّنها ضوء الشموع حوله وجهيهما.. غابا فى رقرقة عيناهما.

هي : استحلفكن يا بنات أورشليم أن وجدتن حبيبي فأخبرنه أني مريضة
بحبه

هو: ما فَضْلُ حبيبكِ على الأحبَّاءِ أيَّتُها الجميلةُ في النِّساءِ، ما فَضْلُ حبيبِكِ على الأَحبَّاءِ حتى تَستَحلِفينا هكذا

هى : حبيبي سليمٌ وأسمَرُ لا عَيبَ فيهِ، عَلَمٌ بَينَ عشَرَةِ آلافٍ .

رأسُهُ ذهَبٌ إبريزٌ، وغَدَائِرُهُ أغصانُ نَخيلٍ حالكةٌ بلونِ الغُرابِ .

عيناهُ حمامتانِ على مَجاري المياهِ مَغسولَتانِ باللَّبنِ، وهما في مِحْجرَيهِما.

هو : :شفتك كسلكة قرمز .. عيناك حمامتان تغتسلان بماء مصّفي

سمعا صوتا آت من الكنيسة بإعلان عن راهبة ستتحول "لأم" اليوم، فتوجها للإحتفال وصل لسمعهما نميمة الأخوات

عن هذه الراهبة التي سترتدي الزي الأسود، كانت تعشق رجل من غير دينها، وعاشت معه حكاية جميلة تحدث عنها كل الناس وكانت حكايتهم دائما خير سمير للجلسات العامة، تخلت عن كل شيء لأجل خاطره، لكنه جنّ !.. فكلما قرر أن يتزوجها رغم سهولة هذا، ورضا السماء إلا أن الناس كانت تهاجمهم، ضعيف هو لم يتحمل، جنّ بحبها وهي ذهبت لحياة أخري بعيدة عن الناس، لجأت للعشق الأبدي الأكبر، الذي لن يتخلي عنها أبدا، لم تجري دماء الشهوة في عروقها، تطهرت حتى في أحلامها !

فتم بعد فترة الاختبار اللازمة وضعها علي التابوت وإقامة صلاة الموتى عليها لأنها ستخرج من الحياة الزائفة وتدخل في حياة الرب التي اختارتها .

-١١-

تنهيدة موجعة من القلبين أطفأت شموع المكان كله .. خرجا يدهما ملتصقتان، عيونهما سارحة، ظلا يسيران بلا توقف، عبرا أماكن كثيرة تجمع ألوان من البشر، ديانات مختلفة، لم تبهرهما كل الأشياء الذين مروا بها، كان كل تفكيرهم عندما يصلوا لمكان يمكن أن يستريحوا فيه .. كيف يقاومان انجذابهما لبعضهما أولا ؟!! .. ثم يصلي كلاّ منهما صلاته

بعد الصلاة نظرا لبعضهما وبشقاوتهما المعهودة قررا :

- لنذهب إلي الجّنة .

- لا يوجد هنا جنة .

- هى المكان الوحيد الذى يليق بنا، هناك فقط نستطيع أن نصلي صلاتنا الواحدة ..وبدأ يغنيان اغنيتهما المفضلة بسعادة بلا تفكير في التوقعات، وانطلقا في طريقهما وهما يسمعان

صدي صوت آت من عمق السماء بموسيقى من صنع الطبيعة، طيور مغردة وحفيف شجر وخرير نهر ووشيش الهواء النقى فى الفضاء، وبهدوء مرعب وقفا للاستماع :

أعطني النـــــاي ... فالغنـــا خـــــير
وغني الصـــلاة
وأنين النــــــاي ... بعــد أن تــــفني
يبــقي الحياة
ليس في الغابــات ... لا والكـــــــــفر
ديــن القبيــح
إن ديـن النـــاس ... مثـــل ظـــــــل
وهــم ويــروح
لم يقم في الأرض ... بعـــد طـــــــه
ديــن والمســـيح
أعطني النـــــاي ... فالغنـــا ســـــر
وغنيّ الوجود
فأنين النـــــاي ... بـــعد أن يفنـــي
- يبقي الوجود ١٢-

ليـــس فى الغـــاااا بـــاااات د يييـن
لا .. ولا الكفــر القبيـــيـــيــيــح
اعطنى النـــاى وغننننـــى وانســـى داء
ودواء
إنما النــــاس سطــــــور
كتبت لكـــــن بمـــــــــاء

طـارا فـى نهايـة الامـر كالملائكـة .. صـورتهما الآن تمـلأ البيوت ولن يصدق أحد يوما أن هذه اللوحات المعلّقة لملاكين صغيرين عشقا بعضهما حتى تلاشيا .

لـــــقاءات
عبدو عثمان

المعنكيّة*

١

بين تلافيف الذاكرة، بين وديانها العميقة، وفى مغاور جبالها الشاهقة، فوق الصحائف التى تتراكم هناك بمرور الأيام، صور وأحداث وأقوال، منها ما يمرّ مرور سحائب الصيف، ومنها مايمكث زمنا ما ثم يغيم أو يغيب تماما، ومنها وهو القليل جدا ما تظلّ راسخة لا تمحوها الماحيات، ولا تغيّبها العاديات وإن ظننت أنك نسيتها تماما، تظل قابعة فى ركن منسىّ، أو فى جوف مغارة نائية، فإذا ما تصادف لقاء ما فى درب حياتك نفضت عنها غبار الأيام والسنين، لتظهر أمام عينيك ناصعة واضحة كما لو لم تغب أبدا، شهيّة كما لو كانت رغيف خبز ساخن برز لجائع من تنّور الزمان لتوّه .

هكذا برزت أمامى من حيث لا أدرى، تماما كما لم نطوِ فوق ظهرنا ثلاثين عاما أو أكثر، العينان ذواتا البريق الدافئ لازالتا تشعان بالبريق نفسه، والخدّ الأسيل لازال أسيلا كما لو كان، والقامة الهيفاء التى همّت بها هى هى، أو هذا ما أردت أن أراه حين رأيتها .

---

* المعنكيّة جنس من الأفراس العربية الأصيلة تتميز بالرشاقة وطول العنق .

كنت أمضى نحو سيارتى مطرقًا، أنوء تحت حمل كيسين من خضار وفواكه، تسّوقتها من سوق "باب الجنان" فى حلب وما كان الكيسان ثقيلين، كانت السنون قد أثقلت ثقلهما أثقالا، كنت أسير ساهما مطرقا حين تقابل مسارنا فتوّقفنا، ماكنت أدرى أنها هى حين توّقفت، وما كانت تدرى أننى أنا حين توقّفتْ، ولكننا درينا حين توقفنا ورفعنا ناظرينا ننظر من أمامنا، كانت تحمل مثل ما أحمل، وربما كان حملها أثقل وماكان أثقل !

حين تقابلت مظرتنا كان وجوم وذهول، كان حضور ماضٍ بعيدٍ بعيد، كان انبثاق وبروز صور لا زالت واضحة ناصعة الوضوح، وسماح أحاديث لازالت دافئةً دافئة، مختلطة بمرارات أزالت الأيام الكثير من قسوتها.

ما زدتُ على أن أطلقت آهة تعجب، ومازادت على ذلك، وتراخت الأيدى الأربع فوضعت أحمالها وانطلقت الأعين تتبادل النظرات .

٢

أشعلنا نارًا فى ساحة القرية أذكينا أوارها بحطب كثير حتى أنار اللهيب ما حوله، وكنا حولها نرقص فى دبكة اتسعت لتشمل كل من يستطيع الرقص فى القرية من نساء ورجال، كات عرسُ وفرح، وكنا نرقص نحن الشباب لنظهر مهارتنا وإشاراتنا لمن نحب، وكانت منْ أحب مُهرة أصيلة يتسابق لودّها الكثيرون، وكنت تُحب!، هذا كان يعرفه الجميع، وربما سمع به حتى من فى الآرجنتين التى ما كنت أعرف أين تقع، من بين الجمع انبرى راقص صاح مُغنيّا مشيرا حيث مُهرتى :

ايش تسوى المعنكيّة وسمعنا من يجيبه مشيرا للمكان نفسه : "تسوى ملاة مخلاتها ذهب".

انقبض قلبى وربما قلبها أيضًا، انقبض قلبى لأنى لا أملك ذهبا ولا لجينا لأملأ به مخلاة مهرتى "المعنكية"، والمنادى السائل كان يملك، أو أبوه من يملك، عقاراته كثيرة فى القرية والمدينة، كان يزور القرية لِماماوفى المناسبات مثل هذه، ودائما كان يتبختر بمال أبيه كديك حبشى، كان دعيّا ممجوجا رغم غناه .

انقبض قلبى أكثر حين تتالت أسئلته وتكررت، ورأيت غيوما سوداء

تأتى بها الأيام، فتحفزّت وزاحمته فى رقصه، زاحمته بعنف مقصود فانسحب مهزوما، انسحب وفى عينيّه انكسار ومكر وخبث، فزهوت قليلا وأنا بين التوجس والخوف، وتواريت مودّعا مهرتى بنظرات حنونة .

٣

قرب العين، ملتقى عشّاق قريتنا، وفى ظلّ أشجار جدولها الوارف، تمددت ساهما أنظر مافوقى من أغصان وأسمع زقزقات عصافير، فوق غصن رفيع رأيت حيّة تمسك عصفورًا، العصفور كان يئن كمن يبكى، انقبض قلبى وما وجدت سبيلا لمساعدة العصفور، كانت الحيّة مخيفة، والعصفور كان ميؤسا من نجاته .

بكى قلبى وأنا أرى عجزى، استويت أنظر ببلاهة فى أمرى وما أنا فيه، وانتبهت حين أطلّت مهرتى تقفز قفزا، جاءت إلى

العين واردة، وما لغيرى جاءت، قالت سريعا : أبوه جاء لأبى خاطبا، عرض عليه ذهبا ومالا، تعال لأبى وسأكون بجانبك .

قالت ذلك ومضت سريعًا، وبقيت ثاويًا أنظر إلى العصفور ببلاهة وهو يغيب بين شدقىّ الحيّة المخيفين، وغادرت القرية مهزومًا، وسمعت والدى يقول بين هزيمته : قدر ما تستطيع ياولدى، قدر ما تستطيع، لا تقف عاجزًا
أمام نظرات أولادك، وبخاصة حين يكونون على حقّ .

٤

ألقت بى بلاد إلى بلاد، وتقاذفتنى أمواج وأمواج، درست كثيرًا وعملت كثيرا حتى ظننت أنى نسيتها تمامًا، وقبل أن أنساها سألت عنها مرّة أو أكثر، ثم راكم الأيام غبار النسيان فوق صحائف الذكريات.

٥

قالت : لماذا تركتنى ورحلت ؟

قلت : ما كنت أستطيع غير ذلك .

- كنت سأتحدى العالم لو وقفت بجانبى، وكنت سأرحل معك لآخر الدنيا لو أردت، ولكنك تركتنى وحيدة ورحلت .

- تعذبت كثيرًا فقولى لى ماذا فعلت بكِ الأيام ؟

- وضعت على جرحى ملحا، وبملح فى فمى عشت .

- لماذا تطعمنا الأيام المرارات ؟!

قالت ساخرة : هاقد بدّلت الأيام شجاعتك حكمة، فلماذا لا تجيب عن أسئلتك، أنا عندى أسئلة أخرى، لن أسألها لأنها لم تعد لها فائدة .

٦

اقترب رجل من حيث كنا نقف .. قال يخاطبها مستاءً : أمى لماذا تتعبين نفسك وتأتين إلى السوق ؟ ألا أحضر لك كل ما تريدين؟ .. قال ذلك دون أن يلحظ وقفتنا، وحين لحظ نظر إلىّ بعين الريبة والفطنة، ثم سأل أمه مازحًا، أو هذا ما ظننت أنى سمعته : أهذا هو يا أمى ؟

- نعم هو بعينه .
- كيف التقيتما بعد كل هذه السنين ؟

قالها ومدّ يده مصافحًا وأضاف : مرحبا عّم، كانت بى رغبة عميقة بالتعرّف عليك، أمى حدثتنى عنك حين وقفت بجانبى وبجانب فتاتى حين داهمنا مادهمكما .. قالت : لا تهرب من المواجهة يا ولدى .. توقف الرجل قليلا ثم أضاف : ربما كنت ستصبح والدى، أو ربما هذا ما كنت أريد سماعه .

قلت سائلا : وكيف هو أبوك ؟

قال : رحل منذ زمن بعيد، وأمى ربتا حتى صرنا رجالا، وهاهى لازالت تتعب نفسها، والطبيب أوصانا بمراعاتها والعناية بصحتها، قد تمكنت منها أمراض وأمراض .

٧

نظرت إليها منكسرًا، ورأيتها والتجاعيد قد تزاحمت حول عينيها وشئ من خديّها، ورأيت كم أحنت السنون القامة التى كانت هيفاء، لم يكن بقى مما عرفت غير بقايا بريق فى العينين، فحملت كيسى وودعتهما ومضيت متمهلا، وقبل أن أبتعد صاح

الرجل : يا عمّ تعال لزيارتنا، لزيارتها، بيتنا غير بعيد، فوق هذا السور .

قلت : سأفعل، سأفعل .

كان صوتي واهنًا واهنًا، وما أظنه وصل إليهما .

الحرب

في مطلع ستينات القرن الماضي كنت طالبا بالمراسلة في جامعة دمشق مثل الكثيرين من أبناء جيلي، كنا نعمل وندرس في الوقت نفسة.

في حزيران من كل عام كنت أسافر من بلدتي عفرين الواقعة في شمال سورية، إلى دمشق لتقديم امتحاناتي الجامعية، وكنت أقيم أثناء فترة الامتحان في فندق متواضع في حي السنجقدار اسمة فندق العهد الجديد.

أثناء امتحانات السنة الأولى تعرفت إلى زميل وزميلة من نابلس **نصري** و**ليلى**

وكانا شقيقين، ولم تكن الضفة الغربية محتلة آنذاك.. وعاما بعد عام توطدت علاقتنا نحن الثلاثة، أنا و**نصري** و**ليلى**، وفي كل عام كانت **ليلى** تحضر إليّ معها قوالب من صابون أبيض، وحلوى نابلسية وزيتونا أخضر نابلسيا، وحين كنت أقول لها: أنا أيضا من بلد اشتهر بالزيتون، كانت تقول: ليس هنالك زيتون أطيب من زيتون نابلس ولا حلواها .

وتوطدت علاقتنا أكثر، صار بيننا ودّ كبير، ورحت أناديها بليلاي الشامية الجميلة، وليل الشام جميل يعرفة من عاشة، وراحت تناديتي بقمري النابلسي الجميل، كل شيء نابلسي كان عندها جميلا، كانت تقول حتى القمر في نابلس يكون في أجمل

حالاتة، ثم تبتسم وتضيف: سأخطفك يوما الى نابلس لترى كم هي جميلة، وكم قمرها جميل، وحين كنت أمازحها قائلا:

- **نصري** يسمعنا، كانت تقول: سأخطفك بمساعدة **نصري**.

وفي الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧م، وبعد أيام قليلة من التقائنا السنوي، قامت الحرب واشتعلت نارها، فلملمنا كتبنا وأشياءنا الصغيرة، وعاد كل منا الى بلدة.

في ذلك العام لم يتح لي الوقت لأناديها الشامية الجميلة، ولا هي استطاعت أن تناديني بقمري النابلسي الجميل.

وخلّفت حرب حزيران (يونيو) دمارا واحتلالا ونزوحا وفرقة، التقينا أنا و**ليلى** و**نصري** بعد ذلك مرة أو مرتين، وأنهينا دراستنا دون أن تتهددني بأنها ستخطفني إلى نابلسها الجميلة، ولم أجرؤ على خطفها إلى بلدى عفرين، كانت أعماقى تقول لي: يجب أن تظل في بلدها نابلس نبتة مقاومة متشبثة بأرضها.

وظل أمل اللقاء في أعماقنا، وظلت رسائلنا تتبادل الأشواق والذكريات إلى أن قامت حرب تشرين (أكتوبر) ، وفى حرب تشرين كنت جنـــديا أخدم
علم بلادي.

وجاء من أخبر أمي أن فتاها زين الفتيان قد استشهد، فجلست وراحت تنتحب بصمت، وكذلك فعلت شقيقتاي.

وحين عدت بعد أيام سليما معافيا، لم تصدقن أعينهن، كانت شقيقتاي قد لبستا السواد، أما أمى فلم تفعل، ربما لأن أم الشهيد لا تلبس السواد، وربما لأن قلبها كان دليلها، ولكن العيون الستة غير المصدقة رؤيتي أمامهن، كانت محمرة من أثر البكاء، وحين صدقن ما يرين احتضنني وبكين فرحات هذة المرة.

وبين حرب حزيران وحرب تشرين ظلت الرسائل تنقل بيني وبين **ليلى** الأشواق والذكريات، وبعد حرب تشرين راحت تتأخر ثم انقطعت، راسلتها غير مرة ولم أتلق جوابا، فخمنت أن العنوان ربما تغير، أو أن الرسائل تمنع من الدخول والخروج، أو أن أمرا آخر قد حدث، فوضعت على جرحي ملحا وخبأتة في أعماقي.

ثم حدثت فتنة لبنان وحربها، وتلتها حرب الخليج الأولى وبعدها الثانية، وراحت الأيام بأحداثها الجسام تطوى ذكرى **ليلى** وذكرياتها، حتى وجهها الجميل صار طيفا تباعدت زياراتة، ثم غاب وجه **ليلى** ، غاب ليلتي الشامية الجميلة، غاب بين ركام الصفحات التي راحت الأحداث تركمها وتركمها.

بالأمس عدت إلى البيت منهكا، كتفاي الكهلان ما عادا قادرين على حمل المزيد، والأيام تركم الأحداث الثقيلة فوقهما دون رحمة، والوقت يضيق بي ويزحم ما حولي، عدت يلفني دوار أو في عيني غبار.

حين ولجت الدار رأيت صديقتي ورفيقة عمري متعبة مثلى ، بادرتني قائلة:

- رأسي ثقيل لا أكاد أحمله.

قلت: - وأنا كذلك يا حبيبتي، وأنا كذلك، فتعالي ليضع كل منا رأسه

على صدر الآخر، علنا نرتاح.

حين وضع كل منا رأسة على صدر الآخر، حين أردنا أن نرتاح قليلا، فتح ولدنا التلفزيون، وأطل علينا وجة مذيع من

على شاشة فضائية عربية يقول: سنجري لقاء هاما مميزا اليوم، اليوم سنلتقي ثلاث أمهات من أمهات شهداء الضفة الغربية.

حين أطلت وجوة الأمهات الثلاث، ذهلت وجلست مدهوشا مصدقا وغير مصدق ما أراة، كانت واحدة منهن **ليلاي** الشامية الجميلة، تطل بوجهها الجميل من بين غبار الأحداث والأيام والآلام والسنين، كانت أم شهيد من نابلس .

ليلاي

لم أكن أدري إلام ستؤول الأمور، بل فكرت في ذلك حين رأيتها، كنت كطفل شاهد لعبة أخذت قلبة ولبة، فوقف ينظر إليها بكلة، كذلك وقفت أنظر إليها وأزيد، كنت كمن رأى ماكان يريد أن يراة منذ وعي ما يرى، فنسي من وما حولة ووقف ينظر مفتونا بما يرى بكلة، وقفت أنظر إليها كمن رأى صورة حلم برؤيتها منذ أن كان يافعا، وحتى غلب البياض السواد فوق رأسة، وقفت أنظر وجها أبيض رائقا كحليب أمي، يلفة شعر أسود يبزغ الفجر من ثناياة، ملفوفة بثوب أسود لا هو يبدى مفاتنها ولا هو يخفيها، ربما هي تدري أن السنون قد فعلت فعلها، في المفاتن التي كانت تفتن فيما مضى، وربما لأنها تدرى، أن وجهها يأسر القمر نفسة مهما مرت عليه السنون.

وقفت أنظر إليها كمن رأى صورة أثير كان قد نسيها، وأطلت علية من أعمق أعماق ذكرياتة، أو كمن رأى رسما رسمة بنفسه لنفسه، وأودعة في عمق خياله وأقدم أحلامة الضائعة.

حين لاحظت العينان الجميلتان ما أنا فية وقرأءة بسهولة، افتر ثغرها عن ابتسامة، فيها شيء من الرضى والقبول، وكثير مما بي، لذا رحبت بي حين مشيت إليها مأخوذا، مساقا بقوى لا أفهمها ولا أستطيع لها ردا واتسعت ابتسامتها وهي تردّ على سلامي بسلام يماثلة، قالت : أهلا بك ولم تزد .. لم تقل أهلا بك يا أخي، كما تقول لي النساء القريبات عمرا من عمري، ولم تقل أهلا بك ياعم، كمن تريد أن تبدي أنها صغيرة بالعمر، ولم تقل أهلا بك يا أبتاة، كما تقول لي الصبايا الصغيرات .. قالت أهلا بك، وظلت الكلمة معلقة على بسمة مرسومة كأجمل ما تكون، فتشجعت وقلت: لا أدرى ماذا أقول؛ إذ يبدو لي أني أعرفك؟

- قد قلت كثيرا، ويبدو لي أنى أنا أعرفك منذ زمن لا أذكرة .

- انتظرت هذا اللقاء طويلا طويلا فما جاء، وحين جاء جاء متأخرا كثيرا كثيرا .

- يبدو أن الأمور جرت كما قلت .

- يبدو أن الواحد منا لا يلقى من يريد أن يلقاة، وإذا لقية يكون الوقت قد تأخر كثيرا ؟

- يبدو أن أمور الحياة تجري هكذا .

- هل من الممكن أن نبدأ من جديد ؟

- ألا ترى أننا تأخرنا كثيرا ؟

- شيء خير من لا شيء .

- سأنظر في الأمر، وانظر أنت فية أيضا .

تبادلنا رقمين هاتفيين، وعدت إلى من تركتهما عند حافة بحيرة " قطينة " يرقبان مياهها التي عكرتها الشيخوخة والسنون، فما عادت صافية كصفاء وجوة الصبايا

***

قالت لي المرأة التي رافقت حياتي، وشغلت قلبي كلة، إلا حجيرة صغيرة في أعمق أعماقة، قالت سائلة: - من هذة التي سرت إليها كمن يسير في نومة؟ هل هي من معارفك القدامى؟

- هي أقدم من عرفت .

- حدثتني عمن عرفت ولم تذكرها ، فما اسمها ؟

- أنسانيها الزمان وأنساني اسمها، وخجلت من سؤالها عنه .

قالت ابنتي الصبية مرافقتنا :

- هي تلبس السواد! لحزن هي فية، أم لتبين حسنها ؟ فالحسن يظهر حسنة الضد .

قلت : - شغلني عن ذلك حسن وجهها .

قالت ابنتي التي شعرت بما أنا فية، ربما بحدس المرأة الذي لا يخطىء غالبا، قالت موجهة الكلام لأمها :

- ماما، انتبهي لزوجك العجوز، يبدو أنه أغرم بالنظرة الأولى .

ردت عليها أمها : - لم يفعلها حين كان في الثلاثين ، فهل يفعلها بعد الستين !

قالت البنت: - الرجال لا أمان لهم، وكثير منهم يغرمون في السبعين والثمانين، الايام والأخبار وجدتي قالت ذلك .

أكفان بيــضاء

زكريا صبح

عفوًا، فقد كان لابد أن أكتب هذه القصة لحظة حدوثها، إذاً لاستطعت أن أصف الذي حدث صوتًا وصورة ورائحة!!

كل الذي آسف له الآن أنك لا تستطيع أن تشم رائحة الموت التي شممتها إذ كنت هناك، ولكن ليكن مفهومًا أنني لم أكن أستطيع كتابة الذي حدث وقت حدوثه، لأنني تلقفت جسد أمي ملفوفًا بالكفن الأبيض، أخرجت رأسي ومددت يدي، فاستراح رأسها بين كفي، ثم جعلت كفي تحت ظهرها. فأستقر رأسها بين كفي، أخفضت رأسي كي لا تُصطم بالعتبة العلوية لباب القبر، تراجعت خطوة ثقيله جدًا، إذ أن قدمي غاصت في الأرض الرملية للقبر.

كمال، (أحمد) . الله أكبر، علي مهلك، أيوه، الله يكرمك، كده صح، راسها الناحية دي، زي الموجودين.

لست أدري متي جاءتني هذه القوة، جملتها أنا و**كمال**، فقط. لم يستطع أحد ممن كان بالخارج أن يدخل إلينا، ناولوها لنا وتركونا.. آه .. أتذكر الآن شيئًا مهمًا، عندما كنت أعبر باب القبر، كنت خائفًا، ارتعدت، كل الذي شاهدني قال إن وجهي استحال إلي صفرة الليمون. الآن أنا مندهش جدًا إذ أنني استطعت أن أقف مسقيمًا، لم أنحن، كل خبراتي السابقة تقول إن

القب ضيق، ومنخفض، بحيث إذا وقف أحد بداخله انحني رغمًا عنه، لا. لا. أؤكد لك أنني ساعتها كنت منتصب القامة، لكنني فزعت عندما سلطوا ضوء الكشاف الكهربائي داخل القبر، فاستحالت ظلمته إلي نور.

ساعتها لم أعبأ بضوء الكشاف المبهر الذي وقع مباشرة في عيني، لكنني لم أر أحدًا ممن يقفون خارج القبر، لكنهم كانوا كثير. حشد هائل، لم أتبين أحدًا منهم، لكن استقر في سمعي: لازم حد معاك يا **سعيد**، رددت سريعًا ولم أظن أن أحدًا سيسمعني: **كمال، كمال** جوز أختي، فنادوا عليه في صوت واحد، فشق صوتهم صدر الليل، فوجدته يشق الحشد مندفعًا نحوي. يلبس جلبابًا أبيض، خلع حذاءه وانحني قليلاً، ثم وجدته إلي جواري، فاستقر قلبي، أخرجت رأسي فرأيت جثمان أمي وهم يخرجونه من الصندوق الخشبي، أزاحو البطانية الصوف التي كانت تغطي الصندوق، ثم رفعوا الغطاء الذي كان بهذا الشكل، هل تري؟

وضعوه جانبًا، فرأيت جثمان أمي ممددًا داخل الصندوق، حملوه، تعالت الأصوات، الكلمات خليط، الله أكبر، الشيل أمانة، مع السلامة يا**زينب**، الله يرحمها، ولادها بس ياجماعة،ثم تلقفت الجسد، ألم أقل لك أنني كنت مشغولاً فلم أستطع أن أكتب القصة لحظة حدوثها، لو أتيح أن أكتبها لحظتها لذكرت لك أن رائحة القبر كانت قاتلة.

ألم أذكر لك أنني مددت رأسي خارج القبر، ولم أعبأ بضوء الكشاف المبهر. عندما أخرجت رأسي وأنا أنتظر وصول الجثمان بين يدي لفحتني نسمة هواء رطب، لن أنساها،

فالحظات التي قضيتها داخل القبر قبل أن يلحقني **كمال** كانت خانقة، أكاد أقول إنه لم يكن بالداخل ذرة من هواء، حاولت أن أتماسك، لكنني اندفعت بتلقائية، ومددت رأسي فلفحتني هذه النسمة الرطبة، فأحسست لحظتها الفرق بين الموت والحياة، فالهواء الذي شممته كان محملاً برائحة الزراعات المحيطة بنا ورائحة روث البهائم في الزرائب،وأنفاس الناس بالخارج. أما رائحة الموت فلن أستطيع وصفها، لكني أستطيع القول إنها استحالت طعمًا ما يزال أثره ثابتًا في حلقي، هل تعرف رائحة العفن؟ هل تعرف رائحة الجثث التي تحللت؟ هل تعرف رائحة العظام البالية؟ هل تعرف رائحة الأكفان التي ذابت؟ هلتعرف رائحة الديدان ا لتلهم جسدًا؟ لست أدري كيف أصف لك تلك الرائحة، لكن طعمها مايزال عالقًا بحلقي كلما ابتلعت ريقي!!

ربما لو كنت قد كتبت القصة لحظتها للفتها الرائحة رغمًا عني، **كمال** الذي وضع الجثمان كان يبكي، انهمرت دموعة داخل القبر، انهار تمامًا، علمت فيما بعد أنه أصيب بحالة غثيان، أغمي عليه، كنت أظن أنه وصل بحزنه وبكائه حدّ الانكفاء عليها، لكنني سرعان ما تبنيت أنه فاقد الوعي، لم أسال نفسي لحظتها لماذا خزلتني يا**كمال**،ولم أسأل نفسي لماذا لم أطلب أحدًا من إخواتي كي يدخل معي القبر نضعها في مثواها الأخير، أنا أعرفهم تمامًا: **سمير** –أخي الأكبر- لا يحتمل، ولا يستطيع أن يحملهامعي، ثم إن دخوله من باب القبر الصغير كان سيستغرق وقتًا طويلاً، والحمد لله أنني لم أطلبه، فكيف كنت سأتصرف لو أنه أغمي عليه بدلاً من **كمال**؟ فلقد استطعت أن أرفع رأسه من فوق جثمان أمي بصعوبة، وحملته من أسفل

إبطيه، ودفعته بصعوبة، وحملته من أسفل إبطيه، ودفعته بصعوبة،فتلقفه الذين يحتشدون خارج القبر، **حملوه** كما حملوا جثمان أمي منذ قليل، طرحوه علي ظهره، وراحوا يخلخلون الهواء من حوله، تدافعت الأصوات: ابعدوا عنه. وسعوا له، خلي الهوا يوصله، تخيل لو أن **سمير** هو الذي دخل معي!!

ولم أكن أستطع أن أطلب **مجدي**، فهو رقيق، أكاد أقول إنه يخاف، يرتعد في مثل هذه المواقف بصراحة، كان صعبان عليّ جدًا، تخيلت لو أنه دخل معي، كنت سأبكي له لا لموت أمي، ولذلك كان إصراري أن يدخل معي **كمال** خذلني، لم يستطع أن يحتمل رائحة القبر، وربما وقعت عيناه علي الذي وقعت عيناي عليه منذ قليل، لكنني كنت قد ألفت الموقف، فالجسدان اللذان تمددا بجواري لم يعودا يخيفاني.

أنا متأكد تمامًا أنهما لامرأتين، فالمقبرة نسائية، إحداهما أطول من الأخري، واضح تمامًا أنهما دفنتا منذ وقت قريب نسبيًا، إذ أن الكفن الذي لفا به لم يتحلل تمامًا.

لو أنني كتبت القصة لحظتها لاستطعت أن أذكر لك أن لمسة واحدة لهذين الجثمانين تستطيع أن تجعل منهما رمادًا، هكذا تخيلت لحظتها.

إذن فربما وقعت عيناه علي ما ألفته منذ لحظات، ولذلك دفعته برفق .. لماذا خذلتني يا**كمال**؟ تركني أعود مرة أخري وما أدراك أن تعود داخل القبر!! صحيح أنهم تحروا أن يغمره النور، لكن الخطوات ثقيله، وللرائحة طعم لزج، عدت كي أفك عنها الأربطة التي ربطت بها .. متي انتهيت؟!

متي خرجت؟!

متي أفقت؟!
متي ماتت؟!
متي دفنت؟!
متي عدت؟!
متي رأيت **كمال** يمشي علي قدميه؟
متي.....

صور ممنوعة لإمرأة فوق الشبهات

جليل إبراهيم المندلاوي

وافق الرسام على اعطائها دروسا خاصة في الرسم، ليس من أجلها فحسب بل لولعه الشديد بكل ماهو جميل، فكيف به وهذا الجسد المتناسق أمامه والوجه البريء الذي يشع ضياء نحو عينيه وهي تلتهم كل انحناءة فيها، وهذا الشعر، وتلك العيون، لم يكن يرغب بأكثر من التمعن فيها كما لم يكن يتوقع منها أكثر من ذلك.. لأنه كان يرى فيها شخصية قوية محال الاقتراب إلى معاقل جمالها .. أما هي فقد أعجبت بلوحاته الفنية وتمنت أن تضفي على رقة أناملها إبداعا كإبداعه، فطلبت منه أن يزرع فيها بذرات الإبداع ولم يكن لدى الرسام أي خيار سوى القبول أمام هذا السحر الملائكي، أما زوجها فقد أقنعته بسهولة إذ لم يكن يرى مانعا في ذلك، لاسيما وأنه كان يرى فيها مثالا للمرأة المحافظة.. ولم يكن هذا رأيه فحسب بل كل الذين حوله من معارف وأصدقاء كانوا يحسدونه على حسن خُلقِها وخَلقها..

حين لمس يدها ليسيطر على أناملها لم تتـــوقع منه الدخول إلى قلبها بلا
استئذان.. ليدخلها في عالم لم ترَ منه سوى حلم جميل .. لا أحد يستطيع تغيير مسار الأحلام فهي تمضي رغم إرادتنا .

كان يقف خلفها وهو يمسك بيدها ليحرك الفرشاة على اللوحة امامها.. ووضع يده الاخرى على كتفها لتتسلل أنامله تحت القميص الحريري، لم يكن ينوي أن يبحر اكثر من هذا لكن الجلد الأملس يأبى إلا أن يغري الأنامل بمواصلة طريقها نحو الممنوع .. إذ لم يكن هناك مانع أمام أنامله حتى اصطدمت بالحمالة اللعينة التي تحبس وراء جدرانها سحرا أنثويا.

تحركت غرائز عشقه لكل ماهو جميل، وشجعه على ذلك صمتها إذ لم تستطع أن تقاوم الحلم، بل لم تكن تريد أن تقاوم تغيير لحظاته.. سلّمت إردتها القوية لأضعف لحظة في حياتها، لحظة لم تشعر بطعم سابق لها.. نشوة حقيقية لعشق حقيقي لم تجرب له معنى إلا بين أنامله.

أمسك فرشاة ألوانه وحرّكها حول كل زوايا جسدها .. لم يكتف بذلك بل رفع آلة التصوير التي يحملها معه ليصور كل لحظة من لحظات هيامه ليؤطرها في ذاكرته، رغم عنفها حين كانت تقاوم .. عنيفة في كل شيء حتى العشق حيث لم تجرع منه كأسا، ماخلا قطرات لا تروي ظمآن من حائط كانت تعتبره ظلا فحسب.

وحين تجرعته كسرت كأس سباتها ورفعت يديها مستسلمة لأنامل لا تعرف إلا الرسم، والعبث بتقاسيم جسدها.

طلب منها أن يرسمها كما هي دون أية حواجز تمنع بصره عن جسدها، عارية حتى من خاتم زواجها.. لم تبد اعتراضا رغم انها كانت تطلب اكثر من ذلك.

حان وقت التآمر على حمالة الصدر اللعينة، حين أوحت له بالقبول .. ليحرر ماكان يتمنى أن يلمسه.

لحظات استطاع أن يلتقط لها عددا من الصور بكاميرته البلهاء .. لكنه احتفظ في مخيلته لها بعشرات الصور.

تماما كما يريدها عارية من كل شيء.. ملابسها.. إرادتها.. قوتها، فها هي أمامه أوهن من خيط العنكبوت، يتحكم بها أكثر من تحكمه بفرشاته.. لحظات مرّت ارتشفا فيها من كأس واحد .. لحظات استطاع أن يرسم منها عشرات الصور.. ليحولها فيما بعد إلى لوحات فنيّة تذكره بما كان، لكنه حاول أن يخفي ملامح وجهها ربما كان يخشى أن يتعرف عليها أحد.

لم يجد بدّا من عرض هذه اللوحات مع بقية لوحاته في المعرض الجديد الذي اختار له اسم "ينابيع" .. لأنها كانت ينابيع لوحاته، ينابيع ارتشف منها ما لم يستطع نسيان طعمه، فكانت ينابيع.

لم يتوقع مطلقا أن تحضر زوجها معها إلى المعرض، كما لم تتوقع هي أن يوثق صور ذلك الحلم في لوحاته الفنية.. تلك الصور التي تحولت إلى لعنة تطاردها كلما اقترب زوجها من إحدى تلك اللوحات والرسام بجانبه يحاول ان يشرح له معنى اللوحة بما يطرد من رأسه أية افكار قد تدفعه للشك والريبة.

لم يشك الزوج أن اللوحات كانت واقعا إذ لطالما كانت صاحبتها بأحضانه لياليَ طويلة تكفي لأن يحفظ خارطة جسدها.. ولكن تلك الخارطة كانت من أسراره الشخصية فمن أين تسربت ليطلع العالم عليها.. وقطع احمرار وجهها الشك باليقين.

هل يصرخ بوجه الرسام ليعرف منه كيف سرق خارطة ذلك الجسد الذي لم يشك يوما أن تلمسه أنامل سواه، فهي كما يردد كل معارفه ومن حوله.. امرأة فوق الشبهات.. وهي اقوى من أن تستسلم، لكن خارطة جسدها تقتله فمن أين حصل هذا الرسام على صورها ؟ فهي ممنوعة، كما أنها فوق الشبهات. نظر نحو الاثنين بغضب وهو يحاول أن يجد مهربا لشكوكه أو بصيص أمل في إبعاد هذه الشبهات .. حرّك أنامله على اللوحة وهو يهز رأسه بغضب، ثم التفت إليهما وهو يبتسم بصورة مفاجئة وهو يشير إلى الصدر العاري وقرر أنها لم تكن لتتخل عن حمالات صدرها حتى في أحضانه.. فردد مع نفسه "لو كانت ترتدي الحمالات لقلت انها هي" .. لكن همسه وصل إلى أسماع زوجته والرسام أيضا إذ كانا يصغيان بقلق لكل ما يردده ويهمس به، فانشرحت أساريرهما وهما يسمعانه يردد تلك الكلمات.

تقدم الزوج بثقة نحو لوحة اخرى ليفاجأ بأن الحمالة قد ظهر طرف منها تحت سرير يجمع جسدين ملتصقين.

ملاك الغجر

وحيد إبراهيم

لفته

مرثية على إيقاع كبير الكون *

ظالم البر من دونك **كوكا** العزيزة وصحرة رماله .. نحن جندك الصغار الذين تصورنا أنكِ ستكّحلين الطرف برماد عظامنا .. بتنا نبحث اليوم في جلودنا الظمأى عن عطرك .

نحن الذين، قبل أن نراكِ، تنسمنا فتنة حي "الكيولية" وتهيبنا ظلاله، عرفناه رابضا كقطيع كلاب على سمت طيران القاعدة الجويّة، دانيًا في ظمأ ليالينا دنوّ بنات نعش من خمل أنفاسنا.. أبت أرواحنا تصديق غمز الطيارين .أصغينا لضحكاتهم عندما كنا ننشغل بشحن العبوات في شحوب الفجر .. فرسان خيالاتنا الذين تباروا على اللعب بسماء الحي المتقدة، كلما عادوا مجتازين الحدود بسلام رموا بآلاتهم المرعدة في نهر السراب، مصغين في صممهم لنداء الحور وهم يميّلون الجناح بمرور مرح .

حتى اطل علينا عطا .. أقله المعتمد الأرمني على دراجته، ودفعه وهو يبتسم ماطاً صوته : هاك، أستلم!

كان نحيفاً قاتماً عيناه السوداوان الواسعتان تزويان بحياء . الكيولي* الذي انسل إلى حظيرتنا كشعرة من عانة الصحراء

---

* كبير الكون : إيقاع للرقص والغناء

* الكيولية أو الكاولية : التسمية العامية للغجر

الوردية وأنغزل بظمأ رذائلنا ..به حسبنا أن الكون الجميل قد حبانا بمزية طالما حسدنا عليها شرطة مخافر الحدود.

أثار سحب الغجر للخدمة في الجيش مشاعر خبيثة، وبفطرته صدف عطا عمن حسبوه نسمة من ريح البر ومال إلى رفقتنا مطمئنا لشبابنا ..نحن الذين لم نخفِ رغبتنا بإذلاله، رغبة يطفئها فتور شفتيه عن بسمة يضيئها سنه الذهب .. أذله الامتداد المسعّر لنهارات شحن عبوات المقاتلات وأثارت نظرته المجرّحة شفقتنا، فاكتفينا منه بخدمة الحضيرة .. شعرنا برغبته في كسب ودّنا، وبمرور الوقت استسلمنا لمداعبته أجسادنا في الليالي القائظة .. لمسة أصابعه الحذرة نقابلها بضحكة نبّاحة فيحفن الرمل ويذريه على جلودنا .. نحن الذين تركناه يتشرب سمّ أجسادنا متمتماً بلهجته المبهمة .. لكننا لم نعرف كلبك الحارس في جنتك إلا بعدما دعانا ذات ليلة إلى الحي .

ما أقسى نسيان فتنة ليلة الهوى الأولى .. مذ سبقت أغرودة عقبيه خطانا، في ممرات تخللت شجيرات الشوك، وهو يصف لنا بفؤاد مذبوح ملامح أخواته الكيوليات* "حماماته"حتى بلغنا الحي ففضحنا صفير أنفاسنا المختنقة، مترددا بين صفائح البيوت المتناثرة حول صهاريج منشآت نفطية مهجورة .

كانت خمس أو ست كيوليات في زيادة أو نقصان فدوّار الطرب لعب برؤوسنا، غمرتنا نشوة لم نألفها وحذر أيقظته سحن الكيولية المتناثرين كالرماد .. تكيد عين الهوى الماكرة القلوب الفتيّة .. هذه سحنهن الرصاصية التي تتشابه في الليالي، جلاها شغفنا وكمّلها بدورة الحسن، والبسط المسحوتة وثرت لعظامنا المحترقة .. لكننا ساعتئذ لم ننل منهن غير نفحة مسك

مدوّخة .. شدّنا القدر إلى أوتار ظلالهن وتبارينا لنيل ودهّن فعدنا نحرث دماء غرورنا ليلة بعد أخرى .

نحن الذين ذهلنا من بعد بمرأى كوكا وأغاظنا شغف عشّاقها المعربدين .

رمحت ليلة أو ليلتين وحركت شهوتنا .. كوكا بشرة نحاسية وعينان رماديتان وحاجبان كثيفان متصلان .نحن الذين آلمنا تفاخر الكيولي بجمالها .. الخبيث الذي جاد علينا بملاحقتها في خلوتها .. منتحية بأمها، ملتزة إليها، التففنا حولها . سبانا حاجباها المتكبران اللذان ظللا اصائلنا المشتعلة وعطّش نواحها دماءنا .

لكننا، في أول أيامنا، صنّا عهدا قطعناه للكيولي في لحظة سكرى .. قال: "لا تذبحوا فؤادي ! افعلوا ماشئتم لكن لاتأذوا روحي!"

أقسمنا بشرفه ألا نختلي بأي من البنات بعلمه!، لا رغبة لاحد منا بجرح قلبه .. كان حدّا أقامه كالسكين الصدءة .. ولم تدر الارض مرتين حتى تململت أرواحنا ونقضنا العهد .. كان يرمقنا بنظرة مسمومة ونحن نرتمي بأحضانهن، وانتقم منا بسرقة حوائجنا .. أما كوكا فلم يحظ أسعدنا بأكثر من لحظة عناق منها .. أذلتنا كوكا مثلما نفضّت فتنتها جيوب عشاق الهوى فحرقنا أرواحنا على جلود الكيوليات الرصاصية .. كان الكيولي يرمقنا بحنان عندما نشكو له صدودها وفاجأنا بالقول أنها مازالت بكرا وهو يحذرنا من جرح روحها.

اشتدت شهوتنا لتبتلها البارد ودفنّا عرينا في رمال الليل .. صرفنا النظر عن سرقاته وإن امتدت يده لفلوسنا وأمواسنا

وساعاتنا التي لم نكن نفاجأ برؤيتها في حوزة حبيباتنا الجشعات .. أحيانا بعد شهر كان يعرض ما سرقه فنضطر لشرائه منه بثمن زهيد كافرين بدين الهوى في غمرة نشوتنا، بمرور الوقت، عمد الكيولي إلى فرز نفسه عنا وان بقي يحمينا من دهم الشرطة والانضباط العسكري للحي .. انعكس هجره لنا على مرآة المعتمد الارمني الذي ظهر يوما وردفه على دراجته .

ربما تشرّبت روحه غرورنا حدّ الملل .. لابد أن صلف أجسادنا بدا له أعظم من منفعته الشخصية .. كانت الرغبة تسمم حبنا الكيولية فلم ننتبه لتباريح ظنونه .. على أن الأرمني فتح له قلوب الطيارين . رسمه غيظنا عنكبوتا يختال في برية الطيارين المشرقة .. وفاجأنا تعلّق الطيار خضر به .. كان شغفا متكبّرا من طيار لم ينصب ولهه قبل ذلك على غير قاصفته .

كان نقيباً من بغداد وله جمال أمويّ .. بادله عطا لعبة الهوى، فشدّه للحي مرة، ثم عذّبه بالصدود وأغراه بخيال كوكا واستمرأنا إذلاله لما كان يزور حضيرتنا بحثا عن عطا .. كنا نفسح له مكانًا أمام نافذة ظللناها بأكليل شوك، تلوذ به الطيور .. يرهقنا حضور الطيّار، فكنا ننفخ لظاه بالتشوق لبراعم فتنتك . انتقمنا لعطشنا، لشهوة دمائنا، لكننا حدّسنا بفوزه ينمو على مرآة مخايلنا، فما أن لمحته عيناك الكئيبتان حتى شعتّا مرحاً ورمحتي له ونحتي ليلتك .. كان طرباً لم نذقه وصغرنا لحكم الهوى مكتفين بنشوة يثيرها جسدك المطوح بربع الهجع* . أخلينا المكان لحدقتيه تلهوان بظلال عُريك، بتولتنا التي حنّن مزمار داود خطاها فتمايلت بحب، دون لهوجة، وناحت فحطمت مُهجنا

* ربع الهجع : إيقاع شعبي

وخدّرت أطرافنا.

احتال الكيولي فسكر ذات ليلة وآذاها .. أثار خبله الطيار فلحق بهما في خلوتها بين فزع البنات، قدحت عيناه بشرر السخط والهيام وجثم على صدر عطا وهو يضغط مسدسه برأسه ! خلّصنا الكيولي وغادرنا ليلة المحبين .. نحن مُلاك الجو الذين حلمنا في الليالي والنهارات بجسدها التائه في أنفاق رغباتنا المظلمة .. كنا نلمحهما يشعان في اصائل البر، فإذا اقتعد الطيار حجرا التفت كوكا بين ساقيه ذليلة وهي تسند رأسها إلى ركبته، فنشعر بذلها يسممنا.

مقتنا جسدها ..روحها .. كنا نراهما ونداوي جراحنا برماد الشهوة . لكن أنظلمها وقد غافلته وجادت علينا نحن الكجون* بأشراقة مذعورة بين حين وآخر؟

ياصبغة وجنتيك الشاحبة، لم نسألكِ ماخلبك فيه، أية رئة مظلمة حبست نسمتك عنّا .. طيلة شهور الصيف لم ترمحي أو تنوحي لأحد سواه .. حجرك في نفق جماله وغيرته القاسية .. نراه مختالا بين صف القاذفات يداعب أوتار يأسنا، يقطع المدرج بخطى منتظمة والكيولي يلحق بظله .. نذعن لحضوره الصلب إذ يحفّنا، يمر حارقاً الهواء بطائرته فوق رؤوسنا محمّلا بفتنة الموت التي لن يطيق احتمالها فيقذفها في الظلام .

صبانا عنيد، نسّار ولا أمان لبريتنا اللافحة، فهي تسفّ ليل نهار، ترطم الرمال أبدان القاذفات وتترك ندوباً .

يوما ما حضر أخوال كوكا.

في الليالي الفاترة تلهو الكيوليات بطلي أظافرهن، ينفخن

---

* الكجون : لغة غجرية اصلها إيراني . هندي . تعني الزائن

أناملهن، وتحوم أنظارهن الساهمة .. كنا نحلم في ظلال نار أم كوكا التي تحفن أصدافها، تلمها وتفرشها فاضحة حظوظنا، فيما تضيء نسافة طوس البر سحننا،كما تضيء وجوه أخوال كوكا القاسية، نظراتهم القلقة، خصلهم السود النافرة من تحت شماغاتهم[**] .

هبوا من لا مكان، انتزعوا كوكا من عشها البارد، فأصابها ذهول المستيقظة للتو، متطلعة فينا بعماء، لكنها رمحت لهم ليلتئذ لدغها حضورهم .. ببطء وألم استعاد جسدها لهيبه، تثنّت وتمايلت وطفرت دموعها، عوت بنواح فتّ مُهجنا.

"كانت أمي ريحانة تسبي النفوس في ملاهي بغداد ..ها ..لا..لن يرضيكم كلامي!" .. سلّمت أم كوكا لريبتنا بوداعة "لكن انظروا كوكا المعذّبة واسألوا أرواحكم " .. تنهدت" الكيولي يكره تزويج أخواته مادام فيه قطع رزقه"

نحن الذين لم نسأل كيف تربى الكيولية على اللعب آمنا بفتنتها .. قال أخوالها : كانت صاحبة الزعيم ![*] .. تهمزنا نبرتهم، نحار فذاكرتنا الفتيّة لا يوسمها وجه الحب المجروح ذاك. قالت "فدوة لشبابكم .. ضربوا الزعيم[*] هناك .. بالدفاع ..ها .. قالوا مات .. لكن مامات! شاله واحد من الضباط والله على ظهره إلى بيوتنا خارج بغداد .. قال أخوالها : كان ميتاً .

يطوي فحيح أصواتهم أرواحنا إلى البراري الجرد.. قالت: " أمي سهرت عليه سبع ليال، ناحت له حتى سلّم الروح .. يقولون أن الزعيم فتح عينيه بوجهها الحلو وابتسم ..وصّاها ..

[**] اليشماغ : الكوفية العراقية، غطاء الرأس

[*] المقصود عبد الكريم قاسم. قائد ثورة 14 تموز. 1958 تم إعدمه بانقلاب مضاد وبقي قبره مجهولا.

ها ..أن يدفنوه بمقبرتنا فدفنوه باسم واحد من أخوالها لليوم"

في شهور الحرب تلك تلقت قاعدتنا الجوية حفنة طيارين محدودي الكفاءة .. غمرنا انفلاق الفجر بلهب مقاتلات تهوي من السماء .. كان انعكاساً قاسياً على محيّا الطيار خضر، وخيّل إلينا سماع عوائه يتناهى بعيداً، في الليالي المظلمة.

أرهف آمالنا لوذ الكيولي بحظيرتنا ..عاد يحتمي بنا قلقاً ..في تلك الأيام داعبت نسمة كوكا أنفاسنا.. كانت تصحو فينا متمهلة، تصالح أرواحنا، متخفّية في عراء بريتنا عن أنظار الطيار .. غالبا ما كان عطا يستلقي في ظل إكليل الشوك وهو يثني ساقه مدوراً خاتماً في إصبعه وينوح .. يوما ما ترّجل الطيار من قاصفته ما أن لمست الأرض وقصدنا، نحن الذين صدمنا سقم وجهه، إلى أي حد أمتص عنكبوت البر دمه وسممه حب كوكا .. قال بصوت تائه " ما صانت شرفي! أنت أوصيتها بهجري؟" .. لمحنا نظرة حائرة في عيني عطا، تقلصت شفتاه المرتجفتان .. لا يندك الكيولي ببشر بعيدا عن الحي، ولم يحسم الطيار تردده.

بدا مزاج عطا في تلك الايام ورديا وهو يرفل بعز رجل ميسور هام بإحدى أخواته أم وردة* ، ولمست ليالي الطرب ونواح كوكا قلوبنا مجددا .. كنا نزحف كالابراص السامة ملتصقين بآمالنا .. أحيا قلوبنا تململ حلم كوكا، رغبتها بمصاحبتنا، بمداعباتنا، بلفح أنفاسنا لوجهها، احتراق حسراتنا . يبتسم الكيولي لنا ويصفق كفيه " ريستهاه طملهاه ناراه" "7" .. نصغي لهدير دمنا وتشع سحننا بحرارة النشوة .. ذبحتنا طلة

---

* أم وردة : تعني لدى الغجر العاشقة

كوكا في ليالينا، متحيّنة النهزة لترافق أم وردة،فتهز عودها، وتنعّم الكيولي بكرم صاحبه الولهان .. تنعشنا نظرة الرجل السلبية لاهتزاز بطن معشوقته ونتمزق ضحكا.

كوكا ..

كانت نياط شبابنا مشدودة إلى قوس نظرتك، نحن من خدعنا أنفسنا بنسيانك، بمقتك، كوكا، صرنا نطن طنين عشّاقك وتفتكين بنا إذ ترمحين على الصبا المكصوص** ، ونتحرق في ليالينا، عراة، متوسدين الرمل الخريفي، نحفن ظلال جسدك الوردية، وإذ نلثم جلود الكيوليات الخاوية، نتحرق لملمس بشرتك البتول، لكنك تسفرين متمايلة بين راحتي كبير الكون، كئيبة، نائحة، تفزعين خيالاتنا، طاعنة خاصرتك بخنجر مسموم، راغبة بسلخ جلدك .

كوكا ..

لما أراد الطيار انتزاعك ذات ليلة جمّده عوائك، صدمه جسدك المحترق بين أصابعه، الخناجر التي لمعت في نور تكّبرك، ربما زارك في أحلامك وتوسلك، ربما حام بقاصفته على نهر سرابك، أغار مرة أو أثنتين، مطلقاً رعيداً مخيفاً ،أضرم غرورك شهوتنا، وكنت تماطلين، تتفلتين من بين أصابعنا، قلبك مزّاح، قامتك بدأت تزهر بنور حلو، وتغرينا وعود الشباب الباطلة، فبذراعيّ من ستسقطين؟!

كنا نتناسى طيارنا، وجه الحب الجريح، ابتسامته النحاسية.. نظرته المجنونة، دفنّاه في رمال أحلامنا .. نلمحه شبحاً يهيم على أديم المدارج، رهيبا كان في تسلله بين الطائرات

** الصبا المكصوص : مقام

المحترقة، باحثاً عنك في أحلامه، تخصر قامته ريح البر، تلّفه وتدور به في كشتبان الخريف الفضي.. لكن جنونه بلغ مداه عندما طارد الكيولي وتهدده ولم نستطع حمايته ففر إلى الحي.

ظالم شبابنا كوكا ..

حاولنا صدّ جنون الطيار بلامبالاة نتهدده بها، بصلابة نحسها .. لم نعد نلمح عطا إلا في بصيص ليالي الطرب، بين حين وآخر، محتمياً بظلام الأنفاس الخدرة، متلثماً، يقظاً، يعلو صوته، متجاهلا حضورنا، لكننا نحس بإرادته تحيي أفراحنا وتحمينا .

كان النقيب يفاجئنا أحياناً منتصباً بمدخل الحضيرة، عيناه تتقصيان خيال الكيولي، يكاد يراه أمامه، يبحث في سحننا، ويتقدم خطوة ثم تخذله ظنونه ويواصل الحملقة فينا بطرف عينيه وهو يمضي، حتى شغلنا تصاعد المهام الجوية، لم ننقطع عن شحن العبوات، ليلا ونهارا، تكسرت طينة أجسادنا، ودخلنا فيما يشبه الدوّار.

وحدهم فرسان خيالاتنا الذين استهواهم اللعب على ظلالك الوردية مازالوا يشدون قوس تكّبره.. عمدوا، في طلعاتهم الحربية، إلى حرق أجواء الحي بألعاب بهلوانية مفزعة، ولم نكن نعلم أنه أختار فجرا شحنّا فيه قاصفته بسهام الموت، مضيئاً دهشتنا ببسمة رقيقة وهو يرتقي طائرته، منطلقاً بشهقة أختصر فيها نصف مسافة المدرج، حيث علا وهّوم وخرج عن مجال أنظارنا.

ربما رافقنا رعيد إقلاعه أو ملاحظة عابرة عن بعض التوصيلات، ربما كنا نحلم بغفوة ضحوية تنشط دماء لياليا

ويعطرها مسك بريتك، يخمل أنظارنا اخضرار الشوك المسموم، يلتف ذلك الاخضرار المغبر حول الحي، يفيض وينحسر ويمتد إلى ما لانهاية، ونحلم بك ترمحين في جنتك.

هناك رأيناه في حلمنا يعود عابرا الحدود، يحوم بقاصفته مرة أو اثنتين، يميل الجناح، يبحث عن وجهك الحبيب في التماعات الهواء، ثم بهبوط حالم، وقد لمحك في ظلامه، يمر مطلقا جحيم سخطه حيث اهتز الحي وتصاعدت غبرة نارية داخنة .

حـــــــواء

علاء الدين محمد

قنديل

لاشك أن الإنسان ليس أصله قرد .. وأنه ابن أدم لاريب .. وأن "داروِن" لو راجع نفسه لخطّأ نظريته .. وربما لم يمهله القدر ليعيش ويراجع نفسه .. وربما كان يعلم كل شيء .. إنما قال ما قاله لشيء ما في نفسه .. وربما كان يراه هكذا كما وصفه "قرد" .. وربما كان يريده ان يكون قردًا .. لكن الشيء المؤكد ان الأنسان أصله "ملك" فالملائكة خلقت من النور .. وهو خُلق بنفخة من روح الله .. وروح الله نور .. فالأنسان خلق من نور .. هكذا حدث نفسه أمام صورة الإعلان المثبت على سور الحديقة العتيقة .. كان الإعلان لعطر وكانت تمثله فتاة .. آية في الجمال أو أنها ملكت شطر الجمال أو نصف الجمال أو كل الجمال .. ولم لا .. فقد قيل أن حواء كانت تملك كل الجمال .. فيبدو أن هذه الفاتنة البنت المباشرة لحواء .. فإذا كانت حواء ملكت كل الجمال وآدم خُلق من نور الكمال .. فمن أين جاء القبح ؟! كان من الطبيعى أن يكون كل أبناء وبنات آدم وحواء على نفس القدر من جمال الأصل والنبع آدم وحواء .. يبدو أن في الأمر سر ! ولو شغلنا أنفسنا وعقولنا بفك طلاسم الأسرار لجُننّا .. نعم لجُننّا .. كان يمر كل يوم على الإعلان بسيارة "الحكومة" فتغلق الإشارة ويتوقف "الأتوبيس" أمام الإعلان فقد

كان الإعلان من العظم ما يجعل العيون تراه من بعد .. فكان يحملق في الصورة ويسبح في عوالم لا نهائية ويسأل أسئلة لانهائية .. وينطلق في أفاق لا نهائية .. في العينين والخدين والوجنتين والجبهة والشعور والشفتين .. هذا ماتراه العين أما مايراه القلب فهو كثير .. كثير .. لا تستطيع العقول أن تصفه.. فهناك نعم وآيات من آيات الله يقف العقل عاجزًا أمام إدراكها ووصفها وتحليلها .. لاسيتطيع العقل والقلب ألاّ ينطقا بالكلمة الفطرية "سبحان الله" .. كان يتمنى أن لا تفتح الإشارة أبدا .. فقد كانت تنشأ بينه وبين الصورة قصة عجيبة وحديث متبادل بلغة لا يركها عقل ولا تسمعها أذن ولايحسها قلب .. إلا عقله وقلبه وأذنه .. أطياف لا تدركها إلا حواسه .. كان يتمنى أن لا تفتح الإشارة ابدًا حتى يظل في حلمه اليقظي الحي .. ذلك الحلم الذي يأخذه إلى عوالم اسطورية .. يملك فيها كل شيء .. ففي استطاعه أن يلمس شعرها ويمس شفتيها ويحتضنها حضن تتكسر من قوته الضلوع .. إلا أنها سرعان ما تلتئم بقوة وسرعة الحلم .. كان يمر كل يوم على الإعلان بحكم انه في طريق عودته وذهابه .. وكان الأتوبيس يتوقف كل يوم في الإشارة أمام الفتاة الصورة .. وحدث أن توقف الأتوبيس مرّة بعيدًا عن الإعلان بقدر لا يسمح برؤيته وكانت الإشارة طويله .. فما كان منه إلا أن نزل من الأتوبيس وترجل خطوات إلى أن وصل إلى الإعلان .. "فتسمّر" أمامه ساعة حتى تحرك الطريق .. أصبح النظر إلى الصورة شيئًا مهمًا في حياته .. وتأمُل مفاتنها ضرورة لا غنى عنها .. كالهواء للرئة .. والطعام للمعدة والدماء للقلب .. فانه لا يستطيع أن يمر يوم دون أن

يراها .. وكثيرًا ما أمرته نفسه بأن يذهب إليها في يوم "الأجازة" إلا أنه كان يخشى على ما تبقى من عقله أن يطير .. فكان ينتظر بصبر نافذ إلى اليوم التالي .. أحب الفتاه وكأنها مخلوق مجسّد أمامة .. وليست صورة وسقط في دائرة ليس لها مخرج .. فصوّر الإعلان وطبع عدة نسخ من صورة الفتاه ولصقها على حوائط حجرته لكى تكون معه في كل لحظة .. نشأت بينه وبين صورة الفتاة قصة حب ملتهبة .. أقوى من قصص عبلة ولبنى وكليوباترا .. لدرجة أنه أحيانًا كان يفاجأ بنفسه يحادثها على الحائط حتى كاد أن يجن .. اقنع نفسه بضرورة الزواج حتى يحتفظ بما تبقى من عقله .. رشحت له إحدى قريباته العديد من الأسماء .. إلا أنه كان يرفضها بحجج واهية .. رشحت له اخريات وأصرت على أن يتقابل مع إحداهن .. بل اثنتين في وقت واحد ومكان واحد .. أبدى دهشته كيف ؟! ، قالت هذا "شغل نساء" سأقابلك بهما عن طريق الصدفة المُرتبة .. لن تدري أيّا منهما سبب مجيئهما إلى هنا .. سأقول لهما أسباب اخرى .. وما عليك إلا أن تشير لى بالهمز .. ذهب رغمًا عنه .. فقد كانت هناك قوى تجذبه إلى حجرته ذات الصور .. جعل يتنقل بين حجرتين فيهما فتاتين .. يشرب هنا شايا .. ويشرب هناك ليمون .. .. لم يشعر بشيء تجاه أي منهما .. وأحس بقوة هائلة تجذبه تجاه حجرته المصورة .. ظل يقاوم للحظات لكن القوى كانت من العظم ما أن تجذب حتى الحديد فسبقت وقهرت وغلبت .. كل مقاومة له .. .. همز لقريبته فجأة .. قال لها كلمات في أذنها وانصرف مسرعًا عائدًا إلى فتاته ذات الصور .. وقف أمام صورتها وكأنها حبيبته

عـادت إليـه أو عـاد إليهـا بعـد غيـاب طويـل .. "تسـمّر" أمـام الصورة بشوق لا يوصف يتأمل في لا نهائياتها.

فردة حـــذاء

باسم إبراهيم

عبدو

زقزقت الأرض تحت قدميه، وهو يبحث عن إبنه في المدينة، فمنذ عقد توجه الطالب الثانوي **"حميد"** إلى المدرسة ولم يعد! .. وبعد ذلك التاريخ كان الرجل يخرج صباحاً من بيته يدفع عربة الخضار أمامه، يتجول بائعاً في هامش المدينة لتأمين رزق عياله، وعند الظهيرة يركنها بجانب جدار مهَّدم قريب من المدرسة، يراقب خروج الطلاب، يتفحص وجوههم، ويصغي إلى ثرثراتهم، لعل **حميد** يفاجئه بقامته وابتسامته وشعره المرتد إلى الوراء، لكنه يعود أكثر كآبة. وتظل الخيبة تتسربّ، متسللة، تندسّ تلملم ذرّاتها ومفرداتها تحت عباءة حزنه.

كيف خرج **حميد** صباح اليوم ولم يعد؟! .. سؤال ظل متخشباً، وكلما ازداد خشونة يزداد **أبو حميد** حقداً .. يثور.. يغضب.. يتحول إلى حجر صوّان.. لم يقدر أن يحرك صمام الصمت خوفاً أن يفلت ويؤدي به إلى الترحيل أو السّجن والقبر!

لم تنفع كل الأسئلة والإرشادات المموّهة، وطرائق البحث والمخططات، والمنشورات والعّينات العشوائية من كلام الناس، ووصل الأمر بمدير المدرسة إلى تهديده وطرده، فاستكان الكهل، وانتابه شعورُ بأن حياته غير آمنة وبقائه غير مُجدٍ.

وكلما حاول أن يطرق أبواب الجهات المختصة، والمعارف والأصدقاء، لتذليل الصعوبات، يعود بخفي حُنين، خاوياً محملاً بفائض الألم.

تتلمس ذاكته ملابس ابنه تستشرف ألوانها. يقلب دفاتره وكتبه..

تبدو زوجته أكبر من عمرها بسنين. لا تتخلى ثيابها السود عن جسدها. يُعزز الوهن المبكر أشواكه في قلبها وذاكرتها تقول مستاءة: ليس باليد حيلة... تضرب كفاً بكف، وتسبح دموعها فوق خذيها.

كيف يحتال الزوجان على الزمن والأيام تمر بصعوبة، والشمس تتأخر في شروقها وغروبها؟ وأصبح البحث عن **حميد** طقوساً يومية، كمن يبحث عن إبرة في نهر الفرات، أو في أهوار الجنوب.

تكررت الأسئلة والحكايات والأقاويل والاتهامات... وتحنطت الأجوبة.، لم يتجرأ أحد من أصدقاء **حميد** في المدرسة أن يهمس بكلمة، لكنّ المرشد الاجتماعي اقتحم المنزل في ليل حالك، خوفاً من العسس وأفشى السر لأبي **حميد**، وتركه يتخبط مرتبكاً، وهو يعلم أن ابنه لا يعرف سوى المدرسة والبيت، ويكره كرة القدم. ولن تنسحب الظنون بسهولة وهو أكثر العارفين أن الكلمة في غير مكانها، تعطي أكثر من معنى وأكثر من احتمال، ستقوده إلى الهاوية.

ارتاب الرجل، خاف أن يبوح لزوجته بما همس المرشد في أذنه. تأمل الوجوه. رضخ للأمر، واعترف في نفسه، إن زوجه محقة في إلحاحها، وما عليه إلا أن يعترف لها. تجرّأ وقال: إن

حميدًا في المعتقل، فلا تقلقي! ورغم الاعتراف ظل الخبر غائماً، مترجرجاً يظهر ويغيب على شاشة الأمل. وبرز السؤال: ألا يمكن أن توجّه أصابع الاتهام إليه، وهو المسؤول عن تلقين ابنه جملة غير مفيدة؟

أقعده المرض .. غدا نزيل الفراش عاماً كاملاً، يستمع إلى الراديو، وأهمل الشاشة الصغيرة كغيره من العراقيين، لكنه يضطر أحياناً مرغماً لمعرفة بعض القرارات والتقارير الإخبارية عن الحصار والنفط مقابل الغذاء والدواء.. تتسع ابتسامته إذا كانت الحصة التموينية كاملة وتضمر عندما تكون ناقصة! .. يكتفي بما يراه ويسمعه ويطلق رصاص الرّحمة على أيام الستينيات وانتفاضة الجنوب، وقبلها ثورة تموز (يوليو) . أرشف فرحة المستقدم.. كان يقول: تحولت كلها إلى دفاتر منسيّة.. أصبحت الذكريات عتيقة. ويطلب من زوجته في لحظة تقاؤل، أن تحضر له وسادتين ليسند ظهره، ثم يسحب منشوراً سرياً من تحت الفراش، كان أبن أخته سرقه من الأرشيف دون علم رئيسه، وبدلاً أن يعيده في اليوم التالي تركه يتنقل بين الأصدقاء حتى كاد يتلف. وسارت الحياة من سيء إلى أسوأ .. أُغلقت منافذ الضوء في وجهه، "وضع الحزن في الجرة " وتعايش مع حالة الفقد، وهو الذي يدعي أنه كان مثالاً للصبر في عهوده المطاردة. وكان يعرف الطريق جيداً إلى الأهوار ويختبئ هناك شهوراً، وربما أكثر .. يعرف ملجأه في كوخ القصب، وقُفته، وسنّارته، فتحول من بائع خضار إلى صياد سمك ماهر وأصبح له أصدقاء في البصرة .. وعندما

تحدث انفراجات في تلك الأيام، وهي نادرة، يزور عائلته لفترة قصيرة.
وفي زيارته، الأخيرة سألته زوجه: هل تتذكر لون القميص الذي لبسه **حميد** وأنت الذي اخترت لونه آنذاك؟
قال **أبو حميد** وهو يمج سيجارته: أعرف لونه .. تفقدي ثيابه وستعرفين! .. أين تسرحين يا مرأة؟ نحن في وادٍ وأنت في وادٍ آخر!
تهجم المرأة على ثياب ابنها المعلّقة، تخطف قطعة منها، وتعود محملّة بالدموع. وعلى مشارف وادي الحزن العميق، يتقابل الزوجان. وعندما حصل الخراب وتكسرت سلالم المجد، هبط من صعد، وكرّ شريط طويل يختزل وحشية الماضي، ووحشة القادم، إلا أنه تجرأ وخرج الشارع، تبحث عيناه عن قميص **حميد**. انطلق مع الناس، وغابت الأسئلة، وبقى الخوف معششاً .. تذكر أن المرشد قال له: إن ابنك عندما رسم وردة حمراء على السبورة أخرجه المدرس من الصف لكن المدير سلمه إلى أمن الطلاب.
كان يعرف مصير ابنه ويحاول إســـــقاط هذه الأفكار من رأســـــه ومن
حساباته، وفشلت كل الأوراق والرهانات!
هل وردة حمراء .. صماء، بلا رائحة تنهي حياته إلى الأبد؟
ألا يكذب المرشد، هل قتله الجبناء، والقوه جثة في حفرة ما؟
ما أكثر الورد الأحمر في الوطن، وما أصعب رسمه على الورق والجدران، فهو يملأ حدائق"المنصور وبابل". لماذا لم يخطفوا عمال الحدائق الذين يغرسون البذور ويرشونها بالماء؟

لماذا لم يمنعوا تقديم باقات الزهور للمسؤولين والزائرين والمرضى والأموات؟ ولماذا عندما يرسم **حميد** وردة بدون لسان وبأسنان حليبة يختفي أثره؟

يهمس **أبو حميد** وهو يلتفت حوله : إن وردة حمراء في هذا الزمن أشد خطراً من قنبلة ذكية؟!

شعرت الشمس وهي تلفح وجهه هذا الصباح بالحزن، فدفنت رأسها واحمرت وجنتاها تحت غيوم الحرائق .. كشفت للناس عن الأسرار المختبأة منذ عقود في الأقبية.

الأزهار في ذبول واحتضار .. رائحة الموت في كل مكان.. المقاعد في حدائق المنطقة الخضراء خالية من الزوار والعشاق إلا من الطيور الهاربة من شر القذائف.

تكررت المشاوير، والأسئلة وكرّت الأيام، وخرج الناس من بيوتهم يبحثون عن المفقودين والأموات والأسماء والقوائم والأرقام.

حاول **أبو حميد** في لُجَّة الازدحام أن يقرأ رقم ابنه، أو أسمه، فلم ينجح .. تحمل الدفع واللطم، والصراخ والنحيب .. ولم يحقق النصر في معركة الألم .. فشل مرات ومرات وهو الكهلُ تُثقله الشيخوخة المبكرة، كاد أن يُسجى على الأرض وتطحنه الأقدام ولكنه حقق النجاح بعد جهد وعرق ولهاث، وكان حريقاً التهم صبره، فمسح عرقه اللزج .. بكى بمرارة وعاد ينزف الخبر لزوجه....

الآن تأكد أن **"حميد الخليلي"** في أحد المقابر الجماعية قرب المدينة. وقبل أذان الفجر اتجه الزوجان إلى المقبرة، وبدأ

يبحثان ويفتشان في الحفر المطمورة وكان الرقم الذي يحمله في انتظارهما!!

توزَّع الحفارون والباحثون والمتبرعون والمنقبون عن رفاة القتلى .. حاولوا لملمة العظام السليمة والمكسرة والمطحونة، بينما كان الأهلي يبحثون عن أحبائهم يتعفرون بالتراب وغبار الموت والفقد ويعترفون أنهم ودعوا الصبر وملوا سياسة القهر، فقرؤوا الفاتحة وهم يقفون أمام الأرقام والجثث والجماجم.

تماهى الحزن مع الفرح والموت مع الآخرة، وبسرور وجدوا عظاماً وثياباً ودماءً وأرواحا ممزوجة بالتراب والرمال .. وجدوا ثقوباً في الجماجم وقيوداً في الأيدي وعظاماً مطحونة وألسنة مقطوعة وحبالاً وأنوفاً مجدوعة .. ولم يحصل واحد منهم على بؤبؤ واحد أو ظافر سليم!

وكلما تجمع كومة العظام تخاطفها الأهل .. فتشوا فيها عن رائحة الأحباء وعن آثار العرق والدم والثياب.

قرفص الزوجان، قلّبا عشرات الأذرع والأصابع والجماجم والأيدي المحزوزة بالبلطات وعند الظهيرة تعبا وفقدا الأمل بالعثور على أي أثر لـ **حميد** .. تصورا أنهما سيعودان خائبين، لكنهما كان يجاهدان ولا يجاهران بالأمل وكلما مرا على حفرة يتذكران أنهما قرآ أرقاماً مختلفة. وأمام حفرة أخيرة هتف **أبو حميد** وهو يقف تحت شجرة عارية. تيقن أن العظام التي بين يديه هي عظام **حميد**.تلعثمت مفرداته، قلب ساقاً وقدماً، لكن زوجه لم تصدقه وهو يرفع الحزام الجلدي وداهمتها الشكوك.. قالت: ذراعه أطول، ولا يملك حزاماً جلدياً وأختلف الزوجان ..

كادا أن يتشاجرا، لكنهما سرعان ما عادا إلى الصفاء، فتبادلا العظام والأطراف!

مدّ **أبو حميد** يده إلى جيب بنطال "جينز" مهترئ وأخرج نصف دينار ملوث بالدماء ومن الجيب الآخر أسناناً مقلوعة بالكماشة وبقايا شعر جاف .. تذكر أنه في ذلك الصباح أعطى أبنه نصف دينار أجرة الطريق .. صرخت الزوجة وهي تسحب فردة حذائه من التراب، فاحتضنتها، وبدآ يقبلانها، ويغسلانها بالدموع!

إعتــرافـــات عانس

عبـد الحميـد محمـد
أسعد

حتمًا ستكون مفاجأة لك عندما تعلم أن الرسالة منى، وستردد مباشرة في نفسك معقول؟! .. معقول أن تكتب بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة، حقيقة لم يخطر على بالي، أن أكتب أبدًا، ولكن عندما وصلت إلى درجة الصفر من التفكير، وخاصة عندما ترّن في خيالي أحاديثك، وآراؤك التي تنهش أذني ونفسي وقلبي وكياني، وأنت أدرى الناس ماذا تعني درجة الصفر بالنسبة للمرأة، إنها تعني باختصار الجنون بعينه، لم أكن أظن يومًا من الأيام، أن آراءك التي كنت تطرحها، وتدافع عنها في كل مناسبة ستكون على درجة كبيرة من الصحة، لو تعلم كم أتعذب، وأقاسي وأتألم والسؤال الذي ينخر فكري دوما ويسيطر على كل شيء في حياتي، والذي لم أستطع طرده نهائيًا من مخيلتي، لماذا أحرقت أيامي، ولم اسعد بها؟، كيف مرت السنون، والأيام، والساعات، دون أن أعيشها كما يجب أن أعيشها؟

أنا الأن أيها الصديق القديم نكرّة في هذا العالم، دون أنيس أو جليس، دون
زوج أو ولد، لو تدري كيف أمضي بعض الوقت في البيت، سأقول لك دون وجل، أني أتعرى، وأنظر إلى جسدي المترهل

الذي أهرمته السنون، وأشاخته الأيام، أه، أيها الصديق، كم أتمنى لو أنه قد شاخ بين أحضان رجل، المرأة بلا رجل، كالسماء بلا زرقه، والبحر بلا موج، والزهر بلا رائحة، فتصوّر ياصديقي، أني الأن بعد مضي ستين عامًا امرأة بلا رجل .. ما أتعس المرأة بلا رجل !، إنها تمامًا كالليل بلا قمر ظلام حالك كأنه اطبق سواده على كل شئ، وهو لم يطبق على شئ، إنى أكره كل شيء في هذا العالم، ماعدا الرجال !، ولو أني لم اعرف رجلاً قط، !! .. لا تصدق أبدًا أن العانس تكره الرجال، هى لا تحب إلا الرجال، هى دائمًا تحلم بأن رجلاً ما سيطرق بابها، ويدخل كهفها المهجور، تصور أيها الصديق القديم بعد مضي كل هذه السنين من حياتي، أحلم برجل، وأعيش دائمًا في حلم، والمرأة العانس هى أكثر النساء تعيش أحلامًا.

توقف **على أبو خضور** عن القراءة بعد أن تنبه إلى حالة المربك، والذي مازال أمام مبنى البريد، الكائن في وسط المدينة، وما أن تسلم الرسالة المسجلة باسمه حتى فض الظرف، وسحب الأوراق، وراح يقرأ مباشرة، وبعد أن قرأ قليلاً، تجهّم وجهه مستغربًا، وبسرعة بالغة قلب الظرف على وجهه الآخر فقرأ بصوت مهموس "المرسلة" **ملك القضماني - الحسكة** .. و**على أبو خضور** عين مدرسًا في الحسكة، منذ عشرين عامًا، ردد الاسم أكثر من مرة، ثم مالبث أن قطب جبينه، وزم شفتيه، علّه يتذكر، ولكن دون جدوى، وهذا ما أغراه، وزاده لهفة وشوقًا على قراءة الرسالة، وقرر مباشرة أن يقراها على شاطىء البحر، كما درج أن يفعل عندما يريد أن

يطالع الكتب والقصص، و**على أبو خضور** لا تحلو له القراءة الا على رقص موج البحر الدائم، ولذلك تابع سيره مباشرة، دون تردد، نحو شاطىء البحر الذي يزفر دائمًا بموسيقي، ذات نسق دائم، تخلب لب الانسان .. وهو عاشق كبير للمطالعة وللبحر، وما أن وصل الشاطىء حتى راحت تصفعه نسمات البحر الرطبة، وهو يبتسم لها، فاغرا فاه عن أسنان بيضاء، تشبه الزبد، امتطى صخرة بحرية، قد يكون البحر لفظها من أعماقه، منذ آلاف السنين، ثم ما لبث أن أخرج من جيب سترته الرسالة،وما أن بدأ يقرأ من جديد، حتى تلاشت الابتسامة المرسومة على شفتيه، وعن وجهه البيضاوي، الملفوح بلظى الشمس، "أمراة حياتها حلم" ولا تستغرب عندما أؤكد لك، أني اعيش في الحلم، منذ أكثر من أربعين عامًا، أي منذ أن حلمت بأول رجل .. لقد حلمت يومًا من الأيام بشاب وسيم، وهو ابن جيراننا، وكان عمري حينئذ سبعة عشر ربيعًا، وكانت المرة الأولى التي التقى بها برجل .. اقترب مني كثيرًا ودون أن ينبس ببنت شفه، وضع يديه على كتفي، وجذبني إلى صدره، وفغر فمه عن ابتسامة رائعة، ثم ما لبثت الأبتسامة، أن انتشرت بسرعة فائقة، فشملت وجنتيه الحمراوين، وعينيه اللوزيتين، اللتين تبرقان سعادة لا توصف، وقال هامسًا في اذني بصوت رخيم، "أحبك ملك" فشعرت يا صديقي، بأن أوصالي ومفاصلي، ترتعد وأتلاشى، وهو يضمني بقسوة إلى صدره الدافيء، ثم أغمضت عينيّ، وأنا أنتعش، لم أشعر إلا بجمرة ملتهبه، قد أستقرت على شفتي، وراحت تهرس شفتي هرسًا، فذعرت من شدة اللهب، وصرخت، فتحت عيني، فوجدت أمي

بجانبي، تضمني بين ذراعيها، وتلاشى الحلم كومض البرق، لقد حلمت كثيرًا، وما زلت أحلم رغم كبر سني، وقد تسمع من يقول، أن المرأة عندما تكبر تذبل وتجف، وأنا أقول أن المرأة هى المرأة في شبابها وهرمها، والمرأة كالأرض الخصبة، تريد دائمًا الارتواء، حتى تتجدد على حدّ قول جدتي .. لقد كانت لي جدة، قد توفيت، منذ زمن طويل، كنت أحبها كثيرًا، وأجد عندها الكثير من التفسيرات، حول أمور عديدة، ولقد توفى جدي عنها، بعد أن عاشا مع بعضهما فترة زمنية طويلة، وكان عمري على ما أذكر ثلاثين عامًا، أي قبل أتعرف عليك بعشر سنين، وفي احدى الليالي، أوت جدتي إلى مخدعها لتنام، فذهبت معها كي أؤانسها، وبعد أن أصبحنا منفردتين قلت لها: أرجو ياجدتي أن تجيبنني بصراحة تامة، وانا أعلم بأنك صريحة، ولكن سؤالي محرج قليلاً، نظرت جدتي إلى بعينين غائرتين من بين تجاعيد وجهها الذي أشاخته السنون، وقالت لي بصوت متهدج: قولي يابنيتي. وقبل أن اتفوه، عضضت بأسناني على شفتي السفلى، وكأني أحاول هضمها، ثم نظرت إلى جدتي بعينين حائرتين، وكانها تعلم ما يجول في نفسي، وأخيرًا تشجعت، وقلت لها: هل تفكرين ياجدتي بعد هذه السنين الطويلة برجل؟! .. رمقتني جدتي بعينين تبرقان حزنًا قائلا، ثم ما لبثت الدموع، أن انزلقت عبر تجاعيد وجهها المتشابكة، وكانها جداول غزلت سيرها عبر سفح جبل هرم، بفعل الزمن، وبعد برهة من الصمت الموحش، قالت جدتي بصوت متقطع: يابنيتي، الواحدة منا لا تشيخ أبدًا، والرجل هو فقط الذي يشيخ، ويتعب، وتنهك قواه، أما المرأة يابنينتي كالأرض، كلما عطشت تريد المزيد من

الأرتـواء، ومنـذ وفـاة جـدك، لـم أضـع رأسـي علـى مخـدة الا وذكرته وحلمت به، ولكن كلامي أيها الصديق كإمرأة عانس، لا يوخـذ بعين الأعتبـار، لأنـي غيـر مُجرّبـة، ولـذلك ضـربت مـثلاً جدتي .. ولكن الذي ملك تفكيري، ولم أجد لـه نفسيرًا هـذا اللغز اللعين، ولقد قرأت كثيرًا لأجد له تفسيرًا، ويكمن هذا اللغز الـذي ملأ علـيّ تفكيري بالسؤال التـالي: هل تختلف الحياة فـي الحلم عن الحياة فـي اليقظـة؟ .. أنـا حتمًـا لا أقصد الحيـاة العاديـة التـي تفهم قصدي، ولكـن لأوضـح لـك أكثـر، لقـد حلمـت برجـال كثـر، وضـاجعت رجـالاً في الأحـلام، بعضـهم أعرفـه، وبعضـهم الآخـر لا أعرفه، وتلذذت وأنا أضاجع في الحلم، يا سلام أيهـا الصـديق أنه رائع جدًا ! ولكن الذي لم أجد له تفسيرًا، هل المضـاجعة فـي الحلم كالمضاجعة في اليقظة؟، أعذرني ايهـا الصـديق علـى هـذه الصراحة التامة، ولكنـه واقـع اعيشـه، وأنـت لا تعلـم كـم أتعـذب، وأتألم وأتقلب على الجمر.

نظـر **علـى أبـــو خـــضور** إلـى المـدى البعيـد، حيـث تلتقـي أطراف السمـاء،

بمستوى البحر، وراحـت تجـوب رأسـه أفكـارًا شـتى، ومحـاولات عديدة، عله يهتدي إلى صاحبة الرسالة، أو يتذكرها، ولكـن هـذه المحاولات، ذهبت أدراج الرياح، وعندما بائت محاولاته بالفشل في التعرف علـى **ملك القضماني** التي شـغلت جُلّ تفكيـره وذهنـه وخياله، نظر إلى الزبد الذي يمتطـي مـوج البحـر كالفرسـان فـي غمار الحرب يتسابقون نحو النصر، ثم ما لبث أن رفـع الرسـالة إلى مستوى نظره : لقد شغلت آراؤك وأحاديثك، جل أهتمـامي، والتـــي كانــت تــدور حــول الحيــاة والحــب والــزواج والطــلاق

والسياسة، وحول مواضيع كثيرة وكان الجميع مُغرمين بحديثك العذب، ولعلك تذكر أني الوحيدة، التي كنت أتكبر على أحاديثك وكم قاطعتك دون سبب، كي أشوه حديثك، وأحرجك امام الجميع، حتى تبدو أضحوكة. أبتسم **على أبو خضور**، هذه المرّة ملء شدقيه، ثم ما لبثت الإبتسامة أن غزت وجنتيه، وأغرورقت عيناه بدموع الفرح، عندما ردد في نفسه: أنت **ملك الجابر**، نعم أنت **ملك الجابر**،وراح **على أبو خضور** يلتهم كلام الرسالة، بعد أن تعرف على **ملك القضماني** كما سمت نفسها، ولكن لو أنك تعلم، ماذا فعلت بي أحاديثك وآراؤك، التي مازال صداها يطن في مخيلتي، منذ عشرين عامًا، أنها تهضم قلبي وأحساسي وكياني، ولم أشعر بأهمية كلامك وأحاديثك ونصائحك، إلا بعد أن فات الآوان، وأُحِلْت على المعاش، وأصبحت وحيدة في وسط مستنقع العنوسة، هذه الكلمة، أيها الصديق، كما قلت يومًا من الأيام.

أنها ذات أنياب حادة، تنهش قلب المرأة على مر الأيلم، وكلما مرّت الأيام، تزداد أنيابها طولاً، إنا وحيدة الآن وسط هذا المستنقع، دون أن يساعدني على الانقاذ أحد، والفارق يا صديقي، بين ماضي حياتي، وحاضرها،أن سجن نفسي، قد ضاق أكثر، وأكاد أن أختنق، وسط زحمة الصمت الذي يلّف وجودي، لذلك كان لابد أن أكتب إليك،وأنت الوحيد، الذي قفز إلى مخيلتي في وسط هذه الزحمة، لأعترف له، هل تذكر أول لقاء تم بيننا، عندما دخلت غرفة المدرسين، لأول مرة، وجلست قبالتي، لقد بهرت الجميع، بأناقتك وتهذيبك، ولأول مرة أقول لك، لقد انتفض قلبي، وحاول أن يقفز من صدري، ويطير

عندما نظرت إلىّ مع ابتسامة شاردة، لم ألحظ لها مثيلاً أبدًا، ولكن اللامبالاة القاتلة المقصودة مني، التي قابلتك بها، والنابعة من كبريائي المزيّف، الذي دمر حياتي، قد محق تلك الأبتسامة، قد محق تلك الإبتسامة البريئة، التي كلما حاولت أن استجمع اشلأها في مخيلتي، أتحول إلي حمامة بيضاء وديعة، ولكن كنت دائمًا، أقول في قرارة نفسي، أن لقاءنا مستحيل، أنا بنت الأربعين، الغارقة في وحل العنوسة، وأنت ابن الخامسة والعشرين ربيعًا، وكنت أتساءل دائمًا، هل يمكن أن يلتقي الخريف والربيع، لو لمرة واحدة، الخريف بغيومه المتلبدة، وترهله الرمادي، والربيع بحيويته الشابة، وألوانه السحرّية، حتي جاء اليوم، الذي سألتك فيه، ذلك السؤال اللعين الذي زاد جوابه غرقي بالوحل أكثر: هل يلتقي الربيع والخريف يا استاذ **علي؟**، نظرت إليّ بعينين، تلمعان بريقًا حادًا، لا اعتقد يا آنسة ملك، ولكن لنفرض أنه تم لقاء، بين الربيع والخريف، فحتمًا سيكون لقاء فاترا، غير منسجم، الربيع بحرارته وحيويته، والخريف ببرودته وجفافه .. ولكن ياصديقي كان سؤالك المباغت ذلك اليوم أكثر صراحة من جوابك على سؤالى، وكأنك تستقرأ ما بداخلى من أمواج هادرة وكنت أردده كثيرا على نفسى وهل تظن أن المرأة العانس لا تطرح مثل هذا السؤال مرات عديدة على نفسها فى اليوم الواحد ؟!، صراحة يا صديقى كنت أطرحه علي نفسي كثيرًا، ولكن كنت أتهرب من الجواب.. سألتني: لماذا لم تتزوجي حتي الأن يا **ملك ؟!** لقد كان لسؤالك وقع كبير في نفسي، وخاصة عندما تابعت كلامك،

بعفوية صادقة: المرأة كالزهرة تمامًا، تفقد أول ما تفقد، رائحتها وبهجتها عندما تذبل.

كانت عبارتك هذه خنجرًا صلدًا أُغمِد في قلبي،فزلزل كياني، وكنت أحاول، أن أفهم الاخرين بصمتي المزيف، أنني من عائلة عريقة، لا تسمح لي بالزواج، الا من أميرإحدي العائلات، أو كبنت أحد الأثرياء، تنتظر بفارغ الصبر ابن أحد الاثرياء، كنت ياصديقي أضع أقنعة مزيّفة، لأخفي وراءها عيوبي، لقد تقدم للزواج مني مئات الشباب، وخطبني الكثير منهم، ولكن كنت أجد لذة في اذلالهم، وأخلق المبررات المقنعة لذويّ، بأن هذا الشاب، أو ذاك، ليس هو فارس أحلامي أبدًا .. كنت أغطي عيوبي وكبريائي بالثلج، فما أن سطعت شمس الحقيقة، حتي ذاب الثلج، وبانت عنوستي، كالتلة في وسط السهل، وأصبح الزواج بالنسبة لي سرابًا، كلما أقترب منه يتلاشي كالامواج التي تتكسر علي صخور الشواطىء، لا تستغرب أيها الصديق القديم، اذا قلت: ان العنوسة عواهر، ومهرهن من نوع أخر، مهر ذو طبيعة نفسية، تتمني الواحدة منا أن يقتحم عليها الرجل عالمها المظلم، ويشعل شمعة واحدة ولو لدقائق حتي تستمتع مرة واحدة بنور حقيقي، المهر النفسي، ياصديقي إن صح التعبير عبارة عن تجليات نفسية، مصحوبة بكوابيس، نتيجة الكبت والالم، والتلذذ الصبياني الذي أمارسه منذ صباي، وأصبح هذا التلذذ طقسًا من طقوسي المقدسة، لقد اكتشفته مبكرًا عندما كنت استيقظ في أواخر الليل، علي انات أمي وصراخها الموجع، وهي تسحق تحت هجمية أبي الجلف، لقد سمعت أمي المسكينة، تئن بصوت مهموس: أرجوك يا أبا ملك، علي مهلك،

"دخيلك"، ثم لا تلبث همسات أمي، وأنينها وصراخها، يذوب تحت هدير أنفاس أبي المتلاحقة، وأشعر ياصديقي، وأنا أتابع هذا المشهد، من خلال فتحة غال الباب علي ضوء المصباح الخافت،بارتعاشات سحرية، تسري في جسمي بتلذذ رائع، ولا أخفيك سرًا أيها الصديق، لم أكنّ لأبي الحب أبدًا، وكنت لا أجد فيه إلا ذلك الوحش، الذي يلتهم أمي يوميًا في أواخر الليل، رغم تلطفه وحبه الزائد لنا، ولكن بالرغم من موقفي الظاهري من الرجال، حيث كنت أتظاهر أمام زميلاتي، أني أمقت الرجال، وأن المرأة العظيمة، هي المرأة التي لم تمسها يد رجل، ولكن كنت أحلم برجل، وأتمني في سريرة نفسي، وأن أذوب، وأسحق بين أحضان رجل قوي، وبالرغم من تناقضي الفاضح، الذي يكمن في السؤال التالي: كيف أتعاطف مع أمي المسكينة ضد أبي، ولا أتعاطف مع نفسي ضد أي رجل؟. بالرغم من كل ذلك أيها الصديق أتمني في نفسي، أن أسحق وأتلاشي في أحضان رجل، كما تسحق ملايين النساء يوميًا في أواخر الليالي، لا تلمني علي صراحتي، لقد فتكت بي كلماتك، وصراحتك، في الماضي عندما كنت تتحدث عن الحب والسعادة والأسرة والأطفال، والمستقبل، ونهشت أحاديثك أحشائي، وما زالت تنهش، عندما أتذكر تلك الجلسات والندوات والاماني الرائعة، التي كنت تديرها بفصاحة لسانك واتساع ثقافتك ورجاحة آرائك، ولكن ما أتعس المرء عندما يعيش دائمًا في الماضي، دون أن يستقرىء من خلاله روح المستقبل، ولكن إنسانه مثلي، بلغت من العمر عتيا، ماذا تستلهم من الماضي، وتدخر منه للمستقبل، لقد سبق السيف العزل، أيها الصديق القديم،

فالماضي، بالنسبة لعانس، عبء كبير عليها لا تشعر أبدًا إلا بجفاف أيامة، وبرد ليالـه، صدقني أن الماضي والمستقبل،شيء واحد، بالنسبة لي لأني في ماضي قبسا للمستقبل، ولا في المستقبل إلا أيامًا سوداء تنضم بسرعة كبيرة إلي تاريخي المظلم، فأحيانًا أكاد أجن، عندما تراودني أفكار وهواجس جمة، وتصرخ في داخلي كدوي الرعد، في ليل ماطر: أيه، أيتها السنون الطويل، التي أيبست حياتي، دون أن استمتع بها، ايه، أيتها السنون، ماذا فعلت بي؟، لقد حولتني إلي بومة، تنعق في ماضيها، لا تظن أبدًا اني أبالغ في وصف نفسي، وما فأفعله الآن هو أني أرسم لك بالكلمات خرائط نفسي المعقدة، ومغائر وجداني، أه، أيها الصديق، ما أصعب الرسم بالكلمات، إنه كالرسم بالدمن ولا أبالغ أيضًا، إذ اني لم أصف نفسي،كما تبدو علي حقيقتها، من الصعوبة بمكان .. وصف نفسي، أنها كبواطن البحار، مليئة بعجائب، لم تكتشف بعد، تنهد **علي أبو خضور** ملء رئتيه، ونظر نحو الاعلي، بعد أن رشحت جبهته قطرات العرق النديّة، رغم نسمات البحر، التي مازالت، تلسع وجنتيه بين الحين والآخر،فاصطدم نظره بسماء صافية زرقاء، يلفحها بياض سرمدي شفاف، كأنها تهيء نفسها للقاء حبيب، ولكن ما زالت أثار وقع قراءة الرسالة، بادية علي سحنته البيضاوية، الملفوحة بلظي الشمس، وقبل أن يبدأ لقراءة من جديد، قال في نفسه بامتعاض:

- يا للأيام والسنين، التي بلعت نضارتها ووجودنا وسعادتنا.

ثم راح يقرأ:

- لقد قالت لي أمي مرة، لقد جنيت علي نفسك يا**ملك**، وحرمت نفسك من بهجة الحياة، والمرأة مهما بلغت من العز والرفعة والكبرياء، فستبقي امرأة بحاجة إلي رجل، وإلا ستتحولين إلي حيوان يجتر نفسه. عندما اتذكر همسات أمي، وتمنيات جدتي، وأحاديثك، أتحول مباشرة إلي أفعي لاسعة، ولاتمكن لحسن الحظ انها لا تلسع الا نفسها، وارجو مرة أخري، أن لا تلومني علي صراحتي، أيها الصديق، وكل ما أخطه عن نفسي، هو رسم حقيقي، فهذه حقيقتي، وما أريد قوله بعد هذه السنين الطويله التي صحرت كياني ونفسي، أنه لمن سخريات الزمن والقدر أن تعنس المرأة، وتبور، لأن كل شيء ممكن أن تتحمله المرأة ماعدا الأبتعاد عن الرجل، فالرجل بالنسبة للمرأة، والمرأة بالنسبة للرجل كالغيث بالنسبة للصحراء، ولكن أيها الصديق القديم قبل أن أنهي رسالتي، هل تسمح بسؤال؟ .... ؟

توترت أعصاب **علي أبو خضور**، وندت جبهته، ووجنتاه، عرقًا من جديد، ثم مالبث العرق أن بدأ يتصبب عينيه وأذنيه، ورقبته، وراح شعر رأسه الذي خطه البياض، والذي جبل بقطرات العرق يلمع علي أشعة الشمس الحارقة، ثم قفز من علي الصخرة، وهو ينظر إلي البحر يملأ أذنيه صراخًا وهويلاً وصفيرًا، طوي وريقات الرسالة، ووضعها في الظرف، قذفه بدفعه قوية إلي البحر، وقال في نفسه حانقا:

"هل تطلق كلمة عانس علي الرجل أيضًا"

عاشق

فصل من سيرة روائي

بيانكا ماضية

سمع نقراً خفيفاً على بابه، فترك قلمه وأوراقه وأفكاره، وألقى من على كتفيه تعبه وإرهاقه، وقام متثاقل الخطى ليفتح الباب، وما إن فتحه حتى وجد ساعي البريد ينظر إليه وقد ساءه الانتظار.. ردّ على تحيته وعلم منه أنه قد أتى إليه مرارًا فلم يجده، وأنه يريد تسليمه مغلّفاً مرسلاً بالبريد المضمون، ولا بد من أن يدوّن توقيعه على استلامه...

رسم له الرجل توقيعه بسرعة على ورقة كانت بيد ساعي البريد، فأعطاه هذا الأخير مغلّفاً يشي بأنه قادم من بلاد بعيدة... قرأ العنوان فوجده مرسلاً من وطنه .. شكر ساعي البريد واعتذر له، وأغلق الباب وراءه، وانتظر للحظات وهو يفكر.. تُرى ما الذي تحتويه هذه الرسالة؟!

فتح المغلّف وأخرج الرسالة من جوفه، وبدأ يقرأ..

"متقوقعٌ أنتَ في غرفتك .. تكتب وتكتب، ولا ترد على الرسائل، ولا تأبه لرنين الهاتف .. أعرف أنك بقدرتك العقلية الفائقة تستطيع أن تتحكم
بالأمور .. كي لا تشرد قليلاً عن أفكارك .. وتبقى رهين الورق والخيال.

متقوقعٌ أنتَ في غرفتك... إذاً... لا تخرجْ منها، وإن استحضر خيالُك صورة المكان الذي التقينا به... فلا تتعب نفسك في الذهاب إليه، لأنك إن خرجتَ سيجمد أفكارَك البردُ الذي يعربد في الخارج... ولكن إن أردتَ الخروج لأمر ما، فتدثّر بكل أوراقكَ وحروفكَ، فربما تهب عاصفة على غرفتكَ فتكسر نوافذها وتسرق ما رتبتَه من أوراق وحروف، وتبعثرها في شوارع حزينة لن
تقدر على أن تلملمها بمفردكَ، وأنت وحيد في هذا العالم.

وحيدٌ أنتَ... واتخذتَ الصمت منهجًا كي تجد لك مكانًا في هذا العالم، لا... لن أكلّمك... ولن أقطعَ سلاسل الصمت التي خضتَ متاهاتها بحثًا عن ذاتكَ... وإن أردت قراءة أفكاري، فلا تفتح بريدكَ، لأنك ستضطر إلى محادثتي، وأنا لا أريد قطع سلسلة صمتك... ابقَ كما أنت في صومعتكَ، ولا تلق بالاً لما يحدث في الخارج، في أقرب نقطة إليك، وفي أبعد نقطة عنك.

وحيدٌ أنتَ، ومنعزلٌ في غرفتك... إذاً، أغلق هاتفك ولاتستقبل أية رسالة من أية جهة كانت، فربما تشرد قليلاً عما أنت فيه، ولا... لن أكلمكَ، ولن أرسل حروفي إليك... فقد تضطر إلى أن ترسل حنينكَ وأشواقكَ ومتاعبكَ وأوراقكَ وأفكاركَ كلها، وأنا غير مستعدة بعد دهر من الفراق أن تنهال عليّ جميعها فأحار أيها أجيب!

وحيدٌ أنت، وأفكارك تتعبك، ولا تعرف كيف تبدأ بصياغتها... إذا، إن رن جرس هاتفك، فلا ترفع السماعة، فقد أكون أنا، وقد تضطر إلى أن تترك قلمكَ لتكلمني، وأنا لا أريد أن أبعثر حروفكَ، فيمضي زمنُك في البحث عنها.

وحيدٌ أنتَ، وأنا لا أريد أن أقتحم عزلتك، فما من داع لأعبر عن اشتياقي وعن لهفتي وعن جنون أحاسيسي تجاهك، لا... لن أجعلكَ متعباً من خفقات قلبي إليك، يكفي أن تكونَ أنتَ أكثر راحة من أشواقي!.

دع عنكَ لومي، ولا ترد على أسئلتي، وإن غضبتُ وعلت نبرةُ صوتي، فلا
تنفعلْ، ولا تهز خلية من خلاياك، فقد تتوه أفكاركَ وتأخذ لنفسها مجرى آخر، وقد تغضب منكَ فتخرج من باب غرفتك لتصفعه وراءها وتذهب إلى غير ما رسمتَه لها، وحينها لن تعرف كيف ستعيدها إليك، ولن تفلح في أن تجلب بعضًا منها، بعد أن جعلتَها تغضب منك حين فارقتَها بخيالك، وستضطر إلى أن تمزق الأوراق لتعيد الكتابة مرة أخرى.

منعزلٌ أنتَ، تكتب وتكتب، ولا تفتح بابك لأحد، ممن تركوا عليه
لصيقات ورق ليعلموك أنهم أتوا إليك...، لأصدقائكَ الذين ظنوا أنك ميت...

متعبٌ أنتَ، إذاً، إن داهمك الوقت ووجدت عقارب ساعتك تشير إلى الثالثة صباحاً، ووددت أن ترتاح قليلاً قبل أن تذهب إلى النوم، فلا تفتح حاسوبك لترد على رسائلي الملقاة في بريدك، لأنك ستكون متعب الفكر، منهار القوى، ولن تفهم كلمة واحدة مما كتبتُ إليك، ستجدني أبالغ في القول وفي الخيال، وإن وجدتني أسألك: ما الحب ؟ فلا ترّد... لأنك ستجيب بدقة متناهية، وستضطر إلى أن تشرح تفاصيله بعناية كأنك ممسك بزمام أموره، وأنا لا أريد أن أحيل فكرك إلى أمر قد يشرد بك

عما أنت فيه، إلى أمر لن تبلغه إن بقيتَ منعزلاً عن حنيني وأشواقي... دع فكركَ يجول فقط على الورق!"

فكرَّ في حروف الرسالة مليًّا وأدرك أنها مرآة تعكس صورة حياته، بل تعكس صورة أفعاله وأفكاره، والتفاصيل الدقيقة التي يعيشها.

جلس وقرأ السطور مرة ثانية وثالثة، وأيقن أنه على شفير ما احتوته من حروف...

بدأ الخجل يتسرب إلى أجزاء جسده، وشعر بحرارة مشوبة باحمرار تعلو وجنتيه، واسترجع في ذهنه الذكريات التي مضت، والكلام الذي دار بينه وبينها، ولحظات الحب التي استرقاها في غفلة من الزمان.

وضع الرسالة جانبًا، وبكى في تلك الليلة بعد رأى فيها قبحه المتغلغل في مسامات الرسالة.

الرواية التي يُعمل فيها فكره لكتابة فصولها، تجعله قسرّا بعيداً عن العالم، عن عالمه، عن أصدقائه، عن أهله وجيرانه..

يبتغي ذاك الرجل نشر رواية يتحدث عنها كل القراء وكل النقاد، يبتغي أن تكون حديث الساحة الأدبية، إذ لا يريد لها أن تحوي ثغرات تثير النقاد فتجعلهم يتناولون أخطاءه ومطباته... يريدها رواية مكتملة البناء، مترابطة الأجزاء، وإن استغرقت كتابتها مئة عام من العزلة.

أمسكَ بورقة بيضاء واستل قلمه وكتب...

"لماذا ترسلين لي المرآة لأرى قبحي... لماذا ترسلين رصاصة الرحمة لتريحيني وترتاحي... أنا على شفير ماقلتِ... خجل مني ومنكِ... وأبكي بعد أن ظننتُ وظن الكلُ وأنتِ..

أنني حجر... يا ليتني حجر... سأكون معكِ... فلا تنسيني كما فعل الآخرون... لأنكِ الأقرب وإن بعد المكان... ولا تهمليني كرواية مللتِ من قراءتها... فأنا تعبتُ من أن أُقرأ ليُلقى بي بعيدًا لما وراء الزمان... هل تستطيعين الاحتفاظ بي لتدليني عليّ ؟!"

وضع نقطة النهاية في آخر السطر، وطوى الصفحة ليرسلها في الغد، عساها تقرأ جيدًا محتواها فتدرك أنها الأقرب إليه وإن بعد المكان.

* * *

بعد أيام وصله الجواب مع ساعي البريد، إلا أن هذا الأخير لم يجد على محيّاه ما يشي بفرح أو حزن أو طول انتظار، على نقيض ما يستشفه على محيّا كل العشاق الذين يلاقيهم ليسلمهم رسائلهم.

أعطاه ساعي البريد الرسالة مستنكراً الجمود الذي استشفه على وجهه.

وفتح الرجل المغلّف ليقرأ... فوجد سطورًا فاق عددها سطور رسالته التي أرسلها إليها... قرأ:

"كل شيء أصبح مهجورًا إلا من قلب يرتعد وليل داج وفضاء يحتمل
التأويل، لمن هذه المسافات تتوالى ولا أكاد أرى ظلالك إلا وتعصف بها الأنواء، أهذا هو السحاب الذي توسدتُه يوماً لأفكر على حافته ببعض الجنون؟!

مذ كان ذاك اليوم الذي ودعتُ فيه عالمًا يشبهني، تاهت الألوان التي فرشناها ظلالاً وودّع حنيننا أرصفةَ الدهشة، فأعّد

الصمت وليمته لحنًا ذا عذوبة تسري في الشرايين، ألهذا كان الزمن حلمًا، وكان الحلم ذات يوم نارًا لا تزال تنهش في ليالي الوداع؟!

أنـــتَ الرواية الوحيدة التي أقرؤها مرارًا وتكرارًا ... وكلما قرأتُها شعرت
بالمتعة تزداد في نفسي... فكيف أهملكَ وأنتَ من كنتُ أبحر في خلاياه... ما زلت محتفظة بكَ إلى مدى لا يخطر ببالكَ...

أنتَ الوحيد الذي كنتَ وشمًا في ذاكرتي لا تمحوه السنون... واعلم أنكَ ما فارقتَ خيالي إلا لتعودَ إليه... حلمتُ مرارًا برؤيتكَ وما أزال أنتظرُ ذاك الحلم الذي لا يزال معششاً في ذاتي.. وبقي حلمًا.. واعلمْ أيضاً أنني لم أرسل إليك رسالتي الأولى، لترى قبحًا ما وجدتُه قط في شخصيتك... وما أردتُ أن تذرفَ دمعة واحدة من دموعك الغالية عليّ... كل ما وددتُه أن أعلمك أنكَ برغم ابتعادك عني قسرًا لكتابة روايتك... لا تزال مشاعري نحوك كما هي.. لم تتغير البتة...

نعم.. أنا كما أنا... هل كنت تظن أن الشتاء سيغيّرني، وأن المسافات ستقلع من الذاكرة تلك الأمكنة، وأن عامًا جديدًا من الفراق إذا ولج روحي سأنتفض كعصفور بلله المطر لألقي عن كاهلي شوقي وانتظاري.

خفيفًا من كل حلم، مرتحلاً من كل كلام يجعلك أسير الذكريات، تحمل أوراقكَ وتمضي متأبطًا بقايا الحروف، وتنهض حين يكتمل الشتاء لتغادر الوقت إلى وقت آخر، موقناً أنني مازلتُ أنا أنا... لم يغيرني شيء، ولا البرد جمّد حنيني،

ولا الرياح اقتلعت جذور اشتياقي... في أي زمن ستغادرني هذه الدهشةُ التي أعيشها مابين صبري وصمتي..

لقد توقفتُ ملياً عند جملكَ التي أرسلتَها... ولمستُ إصرارًا منكَ على بقائي معكَ... مازلتَ أنتَ معي دائماً... ولم ولن أنساكَ أبدًا...

لكنني أود اختتام رسالتي هذه بعد أن أضناني الفراق والهجر بأن أقول لكَ : حبنا سيحيا خالدًا وإلى الأبد... ولتكملْ أنتَ روايتكَ إلى أن تنهي فصولها جميعها... متمنية لكَ نجاحاً أدبيّا يعزّ نظيره."

ذهب الروائي إلى المطبخ ... أحضر فنجان قهوة، جلس يرتشفه ببرود شديد، وهو يدخن لفافة تبغ تلو أخرى، مسترجعاً تفاصيل المكان الذي بقي
وشمًا في ذاكرته ...

هاقد وصل حديقة العشاق دخلها متأملاً من البعيد مقعداً خشبياً أخضر ارتمى بين أشجار الزيزفون ... قادته قدماه إلى ذاك المقعد الذي انتظره طويلاً... فجلس وبدأ خياله يلملم أجزاء أحلام كان قد فرشها ذات يوم فوق اخضرار هذا المقعد ...

هناك كان جالسًا تعرش فوق كتفيه ظلال الزيزفون، وكان المساء أمواجًا تقهقه في دعة وحبور، وكانت ظلال الأشجار تترك مجلسه وتخيم في الأفق البعيد، ترنو إليه، فتملأ أفقه بندى لايزال معلقاً بمجيئها .. مجيئها الذي سيقرع ناقوس روحه وأشواقه والحنين.

* * *

عندما زارتْ المدينة لأول مرة أرادتْ أن ترى شمسها بعد أيام ممطرة بالنبوءات، حملتْ حقيبتَها وتأهبتْ في فضول لا متناهٍ ؛ لرؤية اخضرار الأماكن ونهوضها في شوارع المدينة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من أنظارها ....

خرجتْ من باب الفندق الذي استقبلها في الأمس، متوقفةً للحظات متسائلةً في قرارة نفسها أي اتجاه تسلك... ومشتْ من دون أن تحدد هدفًا لخطواتِها ؛ لأنها لم تكن تدركُ بعد أين يختبئ الجمالُ في هذه المدينة ... ولكي تتلمسَ طريق العودة رأتْ أن تبقى على مقربةٍ من الأبنية المحيطة بالفندق الذي أفرغتْ فيه ذاكرتها، واستعدتْ لتخزينها بصور تجمع فيها بهجةَ الأماكن، وحبورَ النهارات المتطلعة إلى فضاءاتٍ لا تحتمل التأجيل ...

كانت تمشي ببطء شديد ... تجذب أنظارَها واجهاتُ المحال ومقاهي الرصيف التي نثرت كراسيها أمام الملأ ؛ لترحبَ بكل زائرٍ يبتغي أن يمضي وقتاً جميلاً تحت سماء لم تعرف يومذاك سيلاً من التجهم والغضب .

وعلى مشارفِ طرقات أربع، وقفتْ تسائلُ نفسَها عن مآل سيرها إن هي خطتْ لتجتازَ الشارعَ ... تلفتتْ حواليها لترسمَ في ذاكرتها صورةَ الأبنية وأسماءَ المقاهي وأشكالَ المحال ؛ لتستطيع في حال تلاشي ذاكرتها بين أشجار العشق وهمسات العصافير وانبثاق الشمس من بين أغصان الحياة، أن تعود إلى النقطة التي بدأت منها مشوارها، تدلها عليها الصورُ التي أبقتها في الذاكرة .... لكنها فضّلت فيما بعد أن تواصل قدماها السير

على الرصيف المحيط بالفندق ؛ لئلا تخرج عن مسار الأحلام التي نثرتها وراءها ...

منطلقةٌ هي إلى حيث يجذبها شيءٌ تقف أمامه طويلاً لتتأمله، إلا أن كلَّ شيء في هذه المدينة كان مثارَ وقوف وتأمل، ولئلا يظنَّ بها أنها غريبةٌ كانت تمرر نظراتِها بسرعة على كل ماتقع عليه عيناها، وتمشي غيرَ آبهة لهذا الجمال الذي فرش لها أجنحتَه ليحلّقَ بها بعيداً بعيداً ... بيد أنها كانت تسرق النظراتِ وتخبئها في ذاكرتها ؛ لئلا تضيع منها في غفلة من ازدحام هذه المدينة .

كانتْ تمشي وترى وجوهاً مختلفة، بعضُها توغل في الفرح، والبعض الآخر اضمحل وراء الحزن وآخر غاب عن الدنيا ليبلغ حد الجنون، وكانت المقاعد الخشبية التي استمرأت رسوخَها على جانبي الشوارع محطاتٍ لأزمنة غير متباعدة ....

لكمْ كانت صورُ المقاعد حكاياتٍ ترحل بها إلى أروقة الماضي ... وودّتْ لو
تجلس فوق أحدها قليلاً لتستعيدَ أنفاسَ ذاك الزمن ... لكنها كانت وحيدةً ... وهي لا تنتظر أحدًا ... ومضتْ تجمع قدرًا كبيرًا من عناوينَ لمحطاتها ؛ كي تبقى شاهدة على أوراق حلم لمّا ينتهِ .

سارت على الدروب تقفز أمامها عصافير القلب، فلكمْ حلمت بزيارة هذه المدينة، بعد أن أيقنت أنها على موعد معها شاءت أم أبت !!

لم يبق في تلك الدروب خطواتٌ، فقد رسمتها جميعها على الأرصفة وهي
تروح وتغدو ؛ لتغبَّ حتى الامتلاء من أناشيد النوافذ التي تتباهى بأناقتها، ومن امتداد الأحياء التي تناثرت على جوانبها أزاهير الحياة ...

- يا الله كم يشبه هذا الحيُّ حيّاً في مدينتنا القديمة، لكن الناس هنا مختلفون في كل شيء.

ورأت بعد أن أتعبها المسير أن تجلس قليلاً على أحد المقاعد المقابلة لهذا الحي، كي تمعن في جماله وفي حركات الناس الذين يغدون فيه ويروحون وفي استمتاع بعضهم بأشعة الشمس الذهبية التي ألقت بظلالها اليوم على المدينة ...

وفي لمحة من حدس، اهتزت مشاعرها، وأحسّت أن شخصاً في مكان ما قد أربكه تأخرها ...

- وما شأني !! ... وما شأنُه إن تأخرتُ ثلاث أو أربع ساعات ... لستُ على موعد مع أحد ... وإن كان أحد يبتغي لقائي فلينتظر ... حسناً فلينتظر ...

وبعد رحلة قصيرة بين الأشجار والمقاعد والأزقة، وبين واجهات المحال الكبيرة المعلنة عن تفاصيل جسد هذه المدينة، وعبر أجزاء من الزمن امتدت ديمومتها في روحها، رأت أن تعود أدراجها إلى الفندق، بعد أن عبّأت أنفاسها بعبق نهار يستحيل على النسيان، واستمتعت بألوان هذا الصباح الذي شرّع نوافذه على صباحات أُخر .

لم تنسَ طريق العودة، لقد رسمت تفاصيلها بدقة، وهاهي آثار الأحلام

مرسومة أمام أقدامها ...

وما إن وصلت الفندق حتى لمحت في عيون رفاقها قلقًا على تأخرها ؛ لظنهم أنها تاهت في الشوارع التي لا تعرف سبلها، وهي غريبة عن المدينة، لكن فرحها المرسوم على جبينها، وفراشات الحلم التي تتطاير في عينيها، جعلتهم يطمئنون ويستردّون ابتساماتهم التي غابت عن وجوههم بعضًا من الوقت .

كانوا جالسين في بهو الفندق ينشرون أحاديث جلبوها معهم من مدينتهم، فتقدمت منهم ... لمحت رجلاً جالساً بالقرب منهم يشاركهم بعضًا من أحاديث الذكريات، هو ليس منهم ... ولكنه يحمل ملامح مدينتهم ...

كان الرجل يتصفح عناوين جريدة كانت بيده ... وما أن مرّتْ أمامه لتجلس إلى جوار رفاقها حتى اشمّ عبير سحرها، فطوى الجريدة وراح يتملّى وجهها ... نظرت إليه ... أمعنت النظر ... إنه هو ... ذاك الرجل الذي رأته منذ سويعات يخطو نحوها بتؤدة وهي جالسة على أحد المقاعد التي فرشتها المدينة في شوارعها ... كان آتيًا من البعيد، يحمل بيده حقيبة سوداء، يمشي بتؤدة تلفت الأنظار، وقد راحت تتأمله وهو يخطو بخطوات وئيدة ... بدت ملامحه تتضح مع كل خطوة من خطواته ... طويل ... نحيف ... في مشيته رزانة ووقار ... لا تلفت أنظارَه أية حركة في الشارع ... يقترب منها شيئًا فشيئًا ... وجهه يشبه وجهًا لطالما رسمته في مخيلتها ... وجهًا ينبئ عن إشراقة شمس من بين غيوم دكناء ... عيناه تجعلان المرء

يغوص فيهما ليقبض على لآلئهما ... تشفان عن الآفاق البعيدة في ذهنه... كأنما يفكر في أمر ما يشغله منذ سنين... يقترب أكثر ... تلتقي عيناه بعينيها ... لم يبق غير خطوات من المقعد الذي تجلس عليه ... ... توجست ... ظنت أنه سيسألها عن أمر ما ....وما أن اقترب أكثر حتى ابتسم ابتسامة رقيقة جدًا هزتها، وشعرت في تلك اللحظة بشعور جميل يتسلل إلى أعماقها ... انكمشت على نفسها، وأشاحت بنظرها عن عينيه... وراح الرجل يكمل سيره ...

- يا إلهي من هذا الرجل، كأنه قفز من ذاكرتي ليلقاني في هذا المكان ...

نظرت في عينيه، فوجّه إليها سهام نظرة وشت أنه قد أتى إلى هنا لينتظرها، فلم تجد بدًا من أن تحدثهم عن الأشياء التي جلبتها من محال المدينة، وكأنها تجيب على سؤال قد وجهه لها في سرّه عن سبب تأخرها كل هذه العصور ....

- تُرى هل هي مصادفة أن نلتقي هنا مـــــرة أخرى ؟ ... هل حقًا كـــان ينتظرني ... أم خلتُ أنا ذلك ؟ ولكن من يكونُ هذا الرجل ؟!!.

* * *

بدأ حديث طويل بينهم تناول موضوعات شتى، من بينها موضوع يخص الأدب، وانشغال الكتّاب والأدباء في إبداعاتهم الأدبية والثقافية بتفاصيل الحياة السياسية التي تدور رحاها في العالمين العربي والغربي ... وكان كلما أدلى الرجل برأي في مسألة ما مستفيضًا في الحديث عن وجوهها وأسبابها والنتائج

التي يمكن أن تفضي إليها ... ازداد إعجابها بثقافته الواسعة وبذاكرته الوقّادة وبذهنه المتفتّح ...

انحسر الحديث بينها وبينه، إذ راح بعض الرفاق ينسحب الواحد تلو الآخر، لأخذ قسطًا من الراحة ... والبعض الآخر ليستطلع أمكنة هذه المدينة ... ولم يجدا نفسيهما إلا وقد انفض الرفاق جميعهم من حولهم ... وانتهزها الرجل فرصة ليسألها عن أصولها، وعن عملها .. عن درجة ثقافتها واهتماماتها الأخرى ... فلم تجد نفسها إلا وتجيب عن أسئلته كلها وكأنها في محضر تحقيق ....

ووجدتها فرصة هي الأخرى لتسأله عن كل ما يخص شخصيته، فأعلمها بأنه روائي ... وأنه يستعد حاليًا لكتابة رواية جديدة ...

كانت الشمس قد بدأت تغوص رويدًا رويدًا وراء الأفق، ليعلن المساء طقوسه الجديدة في المدينة ... وكان في مفكرة الرفاق حضور حفلة موسيقية لتجمع شباب هذه المدينة إحياء لذكرى الموسيقا العالمية ... وقد دعي ذاك الرجل من قبل الرفاق لحضور هذه الحفلة، فأعلمها بأنه سيرافقهم لحضورها ...

لم يأت الرفاق الذين ذهبوا إلى غرفهم للراحة إذ فضلوا المكوث فيها ؛ لإجراء بعض الاتصالات مع الأهل في بلدهم ... وفيما هما يتحادثان ... اتصل بالروائي أحد أصدقائه الذين ذهبوا لاستطلاع الأمكنة ؛ ليعلمه أنه بانتظارهما على ناصية الشارع المقابل للفندق للذهاب إلى الحفلة الموسيقية، إذ سبقه الآخرون لحجز الأماكن ....

أعلمها بذلك وخرجا من الفندق يسيران جنبًا إلى جنب ... كانت علمات السرور جليّة على محياه ... أما في فضاء عينيها فكانت تسبح طيور المساء ...

راحت تسأله عن جمال هذه المدينة فعلم أنها لم ترَ بعد كل تفاصيلها، أما عند الناصية فراح يتأمل من ينتظرهما فى هذا الفرح الذي يقفز أمامهما، وما أن وصلا إليه حتى بادر بسؤال وجهه إلى صديقه الروائي :

- أكلما وقعت عيناك على امرأة جميلة رحت تغازلها ؟؟

فنظرت إليه لترى علامات وجهه إثر ذاك السؤال ... لكنه ابتسم ابتسامة صغيرة ولم يعلق بأية كلمة وسار الثلاثة حتى وصلوا إلى مكان الحفلة الموسيقية ... فدخلوا الصالة وجلسوا بقرب أصدقائهم الآخرين ... اتخذ الروائي مكاناً بقربها، وكانت الآلات قد بدأت للتو بنشر موسيقاها في الأرجاء ... سألها :

- هل تعرفين لمن هذه المعزوفة ؟ أجابته :

- لموزارت !!

- لاشك أنكِ تعرفين اسمها!

- نعم ... زواج فيغارو !.

وتابعت الفرقة معزوفاتها المتنوعة، وهما منتشيان بما يسمعانه ... بعد

قليل مال إليها ليسألها عن رقم هاتفها الجوال وعن بريدها الإلكتروني ؛ ليستطيع أن يتواصل معها حين عودتها إلى بلدها ... فتسرب عطر جسده إلى أنفاسها، وشعرت بانجذاب قوي نحوه لم تشعر به تجاه أحد سواه ... كبتت شعورها، وأعطته رقمها الذي قام بحفظه في جهاز هاتفه على الفور ... ثم راح

يفتح حقيبته ليخرج منها ورقة تكتب له فيها عنوان بريدها الإلكتروني، وما أن فتح الحقيبة حتى رأت أوراقاً مصنّفة حسب تسلسل معين ... مرتبة ترتيباً دقيقاً ... فأدركت أن حياة هذا الرجل منظمة ومرتبة بشكل جيد وأنيق ....تبادلا عناوين بريدهما وتابعا سماع المعزوفات الموسيقية ...

جالسة هي بقربه .. يكاد يتلاصق كتفاهما ... حينذاك شعرت برغبة قوية في أن تتأبط ذراعه ... لم تكن تدرك مدى هذه القوة التي جعلتها تشعر بإحساس غريب كهذا ...

وفيما هما يتابعان المعزوفات ... همس في أذنها :

- أشعر تجاهكِ بمشاعر لا أستطيع تحديدها بالضبط !!

احمر وجهها وشعرت بنار تشتعل في وجنتيها ... أجابته :

- ولماذا لا تستطيع تحديدها ؟

- لأنكِ أنتِ التي بمقدورك تحديد هويتها ؟

نظرت إليه وابتسمت، وساد صمت عميق بين الاثنين ... بينما علت الموسيقا بروحيهما حتى كادت أن تنطلق بهما بعيدًا خارج هذا الزمان ...

لغة الصمت فتحت لهما أبوابًا من الخيال، من الذاكرة، من أحاسيس كانت شعرًا للحظات قليلة، فتنامى الحلم باعثاً تأثيراً عميقاً في نفسيهما الحائرتين، هدف يبحث عن هدف، عن طريق لا تحدّه الحدود ولاتتاخمه اللغات .

انتهت الحفلة وخرج الجميع مسرورين لما سمعوه من معزوفات جعلتهم في عالم آخر يعيشونه لدقائق ... عالم امتزج فيه الواقع بالخيال ... الخيال الذي حلّقت فيه أرواحهم إلى فضاء فيه كل شيء خالد ... وبينما هم سائرون في الدرب التي

تودي إلى الفندق ... تراجعت خطواتهما قليلاً عن الرفاق ... ولم يجدا نفسيهما إلا أمام حديقة تناثر العشاق فيها كالأزهار ... وسارت بهما أقدامهما إلى مقعد خشبي تحيطه أشجار الورد فعبقت أنفاسهما برائحته ... قال لها :

- كنتُ أعلم أنك ستأتين إلى هذه المدينة !

فأجابته :

- كيف علمت ؟

- منذ زمن بعيد وأنا أحلم بمرآك .... كنتِ (كارمن) التي رسمتها في خيالي ؟

أعجبها التشبيه ... ولكنها انتفضت إذ تذكرت قصة كارمن، قالت :

- ولكن كارمن غجرية !

- أنسيتِ أن للإسبان ملامحنا ؟

- ولكنها كانت فتاة لعوباً !

- وكانت أيضاً رائعة الجمال، فاتنة ! سحرت (جوزيه) حتى جعلته يحبها!

وراحت تسترجع في ذاكرتها ألحان أوبرا كارمن المتأثرة بالموسيقا الشرقية وبروحها ... وانتقلت بخيالها إلى أحد المسارح في مدينتها حين عزفت أوركسترا كارمن ألحانها، ورافقت العزف رقصة الفلامنكو التي أدتها راقصة إسبانية موهوبة جسدت دور كارمن .... وتذكرت نهايتها المأساوية على يد جوزيه .... قالت له :

- ولكن كارمن ماتت بطعنة من حبيبها جوزيه .... هل كنتَ ترى في نفسك جوزيه ؟ أجابها :

- كنتُ جوزيه حين كنتِ ترقصين في أحلامي !!

ابتسمت وشعرت بشيء من الغرور يتسرب إلى خلاياها ... قالت :

- لاتقل لي إنك علمتَ أيضاً أنك ستراني اليوم ؟

- نعم ... فمنذ الصباح وأنا أعيش حالة فرح لاحدود لها، لم أدرك سببها ولكنني كنت أعيشها لحظة بلحظة، وقادتني قدماي إلى ذاك الفندق ... !!

- لا أبالغ إن قلتُ لكَ إنكَ أنتَ من رسمتُ تفاصيل روحه في ذاكرتي !!

- وأنتِ من كان خيالها يرفرف في مخيلتي !

- لاشك أن السماء هي التي حملتني فوق غيومها لأصل إليك ... وماكنتُ أعلم أنكَ بعيد كل هذه المسافات ... حين دعاني الرفاق لأكون معهم في هذه الرحلة شعرتُ بأن نافذة جديدة سأطل من خلالها على عالم يحيا بداخلي !!

- لماذا تأخرتِ كل هذه السنين ؟؟

أجابته بدلال :

- لماذا لم تخبرني أنكَ هنا ... كنتُ أبحثُ عنك في كل الوجوه ... وحين رأيتُ وجهك عرفتُ أنكَ أنت ... ماذا كنتَ تفعل كل هذه العصور ؟

- كنتُ أكوّن ذاتي لكِ ... أملؤها بما تحبينه ... أصقلها لتكونَ كما تريدين ... أشذبها لتكون نقية مثلكِ !!

وسرت نسمة مسائية جعلتها تشعر ببعض من البرودة ... فخلع عن جسده معطفه وألقاه برفق على كتفيها ... شعرت

وكأنه يلبسها روحه ... غاصت في المعطف حتى سرى الدفء في جميع أوصالها ...

- هل تعلمين أنك جميلة بمعطفي ؟

- وأنتَ جميل مذ أن رسمتُكَ !

- كيف كانت ملامحي في ذاكرتكِ ؟

- كما أنت !

- ولكنكِ لا تعرفينني جيداً !

- بل أعرفك جيدًا ... وأعرف أن هذا الكلام سيدور بيننا ذات يوم ... وأعرف أخلاقك وسجاياك وكيف تتصرف في كل المواقف !

- ماهذه القدرة التي تمتلكينها ... ؟؟!

- ليست قدرة وإنما هو إحساس عميق بالأشياء ... حدس ينبئني بأعظم الأمور !!

- وهل أنبأكِ حدسك بأنكِ ستجدينني هنا ؟

- أحسستُ بأن شيئاً عظيماً ستقبض عليه روحي هنا في هذه المدينة ... وكنتَ أنت !

- إنك تبالغين قليلاً !

- لا ... لا أبالغ ... أحدثكَ بكل صراحة عما في نفسي !

كان المكان مناسباً للبقاء لا للرحيل ... للإبحار في عالم لم يشعرا أنهما غريبان عنه، كأنهما كانا يعدان نفسيهما منذ زمن لولوجه ... سألته :

- ما اسم هذه الحديقة ؟ أجابها :

- حديقة العشاق ...

ضحكت وقالت :

- وماعلاقتنا نحن بها ؟
- هي لنا نحن الاثنان ... ألم تشعري فيها بالراحة والفرح ؟
- أشعر فيها بالفرح لأنكَ بقربي .
وتسللت يده إلى يدها، فأمسكها وقبّلها، نظرت في عينيه وقالت :
- الآن أشعر أنني كارمن ...
- هل تدرين أنني لا أقع فريسة للحب بهذه السهولة ؟
- حين يقرع الحب باب قلبك، ليس بإمكانك الهروب منه، فهو ليس بالأمر السيئ، إنه يحمل لك كل تواشيح الحياة وكل غلالاتها، تشعر وكأنك في كون خارج هذا الكون، كون هُيئ للذين يدخلونه ؛ ليكونوا أرواحاً تطير وتحلّق ... أفلا تشعر بهذا الآن ؟
- لقد أتيتني وأنا على أهبة الاستعداد لاستقبالك ؛ لأرى تفاصيل هذا العالم ... وها أنا، وأنتِ معي، يلفني الجمال من كل الجهات، ويسحرني البهاء بإطلالته ... لماذا تأخرتِ كل هذه الدهور ... حتى ظننتُ أنك لن تأتي ؟
- حين شعرتُ بوجودكَ طرتُ إليك على جناح الغيوم لأكونَ معك !!
- ستكونين معي دائماً ...
بعد أيام طويلة من التنزه في فضاءات المدينة وفي أمكنة كان الجمال مرسوماً بدقة في زواياها، حان موعد السفر ... رتبتْ حقائبها، لتستعد للرحيل مع الرفاق ...
كان الروائي جالساً في بهو الفندق ينتظر طلتها الأخيرة قبل الوداع ... وما إن أسفر المكان عن وجهها، حتى اغرورقت

عيناه بالدموع ... نظرت في عينيه وألم الفراق يفتت قلبها ... قال لها :

- كيف تتركينني وحيداً في هذه المدينة ؟

- لستَ وحيداً، قلبي لايزال معك .. ويود ألا يفارقك أبداً .. وحدها الأقدار تفعل بالقلوب ماتشاء !!

وشعرت بحشرجة في حلقها ... لم تستطع بعدها الكلام ... قال لها :

- سأنتظركِ إلى أن تأتي مرة أخرى ...

- انتظرني فأنا قادمة إليك ...

استقل الجميع سيارة أجرة لتقلهم إلى المطار ... في الطريق أمسك بيدها ضاغطاً عليها بشدة، ولم يدعها إلى أن وصلوا إلى المطار ... كان بقربها كل الوقت، إلى أن حان موعد إقلاع الطائرة ... ظل ينظر إليها ... وهي تنظر إليه من بين المسافرين المحتشدين أمامها وخلفها، وفي عيني كل واحد منهما شوق

وحنين ورغبة في البقاء .... إلى أن غابت عن ناظريه ...

في الطائرة جلست في مقعدها المخصص لها بالقرب من النافذة ... وقبل أن تقلع الطائرة، أخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها ... وراحت تكتب نص رسالة هي : بعد قليل ستقلع الطائرة بي ... لقد أودعت قلبي لديك ... كانت جميلة ورائعة تلك الأيام التي قضيتها معك ...

فأتاها الجواب : كنتِ أروع من الأيام ... وستبقين في خلدي حتى ألقاكِ ...

بدأت الطائرة بالسير ... أسرعت قليلاً ... أسرعت أكثر ... وكانت دقات قلبها لا تتوقف عن الازدياد .... هاهي الطائرة ترتفع قليلاً عن الأرض ... وها هي روحها تنجذب نحو الأسفل، تتجه الطائرة بمقدمتها نحو الأعلى ... بينما عيناها لا تفارقان أجزاء المدينة التي أصبحت تحت ناظريها ...

أخرجت قلماً وورقة بيضاء من حقيبتها وراحت تكتب :

"حين رأيت أجواء المدينة – وأنا أطل عليها من نافذة الطائرة – لم أكن أعرف أنني كنت على موعد مع القدر، ولم أكن أعرف أنه، حين سأغادرها مكرهة، سيطير قلبي إلى حيث حطت أمامي حمامة أحلامي التي سحرني هديلها وظلت ترمقني إلى أن تقدمت نحوها فحملتها بيدي لتتكور في كفي تنقر أخاديدها .

كانت المدينة صغيرة لا تكاد العينان تبصرانها،ولكنني رأيتها فيما بعد وكانت كبيرة كبر سعادتي التي تلقفتْها أنفاسي في حضرة من كان معي في شوارعها .

لم أشأ في العودة بعد أن فارقتُ عينين كانتا سكني، أن أتحدث إلى الرفاق، وددت أن أستبدل نوافذ حديثهم بنافذة كانت بقربي كي أتأمل جيدًا من مكان صغير كبر هذا العالم ووسع القلب الذي احتواني فيه ...

الآن أنا في مقعدي في الطائرة، وكلما نظرت إلى أرض احتوتني أيامًا قلائل برقت في ذهني صورة من طاف بي في تلك الأرض التي رأيت جمالها في عينيه،
وكأنني أطوف العالم كله.

الآن أنا في مقعدي في الطائرة، أخفي وجهي المليء بالدموع على فراق من كان حمام المدينة الذي حط على قلبي ليفرش حنانه، حنانه الذي ما كدت أتلمس تفاصيله حتى باغتني زمن الرحيل .

لم أزل – وأنا في الساعة الأولى من الرحيل – أعيش حلم العودة الذي تكاثرت صوره في مخيلتي، ومامن قلب يخفق بي في هذا الفضاء، إنني تركته ينبض بين أضلاع من كان نورس هامًا على شواطئي فهاجت أحاسيسي على أشجان صوته."

بعد أن أرهقها البكاء أسندت رأسها إلى نافذة الطائرة، وما بين ثواني الحلم واليقظة رأته يتوسد غيمة بقربها ... يمعن النظر إلى وجهها ويتأمل بريق الدموع التي اغرورقت في عينيها ... يمد لها كفاً من حنان واشتياق ولهفة ... وغطت في نوم عميق لتستيقظ على بقايا حلم مازالت روحها تتشوق إلى رؤية كل أمكنته لتذوب فيها حتى الانصهار .

* * *

كان حينما يود الانغماس في تلك الأحاسيس التي سيطرت عليه ذات يوم، يحمل أشواقه ويذهب إلى ذاك المكان الذي باح فيه بأسرار الهوى، يجلس ليتأمل، ليعيش زمنًا كان يطير فيه كعصفور يجوب فضاء ربيعيّا مزهرًا، كان يود الابتعاد عنها ليدرك مدى أشواقه إليها، وليسكب تلك الأحاسيس الفيّاضة بالجمال على صفحات الورق، لينسج من تكاثر أشواقه ومشاعره رداء لروايته المنشغل بتفاصيلها، فقد جاءت إليه تلك المرأة في زمن توقفت فيه الرواية عن تشعب الأحداث، وتوالد الأفكار.

حين قرأ الرسالة، وضعها جانبًا وهو يبتسم، إذ أدرك أن مفرداتها ستحمله إلى ذاك المكان الذي سيبث في ذاكرته صورًا جديدة يكمل بها سيرة روائي عاشق حتى الثمالة.

نـفس أمــارة بالعـشـق

د. سناء شعلان

"بوح في تراتيل العشق"

لي نفس أمارة بالعشق، ولي قلب لا يبرم بضعفه الآسر، ولي ربٌ وحده من يغفر خطايا العاشقين، ويبدلهم بسيئاتهم حسنات، ويدخلهم جنات ونعيمًا، ولي سيرة هلالية يحفظها كل من ركب سرج قلبه، وشن حربًا دامية على كائن آخر اسمه حبيبه، وسيرتي يختزلها كل المؤرخين والمخلوعين في حرفي حاءٍ وباءٍ، وبين منحنيات حروفهما وانزلقاتها تسكن كل اللعنة، لعنة العشق التي توهب مجانًا لكل من يملك نفسًا مثل نفسي.

أنا صاحبة أسعد قلب في الدنيا، وصاحبة الحقيقة المطلقة، ونبيّة الكلمة، أنا الملعونة بلحظاتي، المتمردة على السكون، أنا وريثة كل الافتقاد والاحتياج والجوع والشهوة والارتواء والتنهدات والخلجات والارتعاشات والدّوار اللّذيذ المسحور، أنا القائمة بأمر الله في الأرض، والموكلة بكل القلوب خلا قلبي، ولذا حق لي مالا يحق لغيري من حضور لحظة خلقي، كانت لحظة تختصر كل حكايا العشق، وما أكثرها من حكايا! لم أكن وليدة لحظة اجتماع رجل وامرأة بل وليدة لحظة اختيار، وامتزاج روح بأخرى، أنا صنيعة ضعف وانتقاء، من بين ملايين الخيارات في لحظة كنت أنا.

ولدت منذورةً للعشق، ومن له أن يرّد قدره ويبدّل نذره؟! كانت عند والدي خطة آثمة تُختزل في وهبي أجمل ما يملكان من صفات وكروموسومات؛ لأكون مادة للفتنة ولفخار القبيلة ولجموح الرجال الآسرين المسجونين في الكلمة، فشغلتهما لحظة العشق عن مؤامرتهما الحلوة، فخرجت سليلة القبح المتعاظم على انكساره، فمن والدتي أخذت الشعر الأجعد المنحول، ومن أبي أخذت الجسد الضئيل حدّ الانكماش، ومن جدي لوالدتي أخذت العيون الحلزونية الخاشعة كجبن أرنب، ومن زوجته أخذت الأنف المعكوف كأنف صقر كاسر، ومن جدتي لأبي أخذت المشية الطاووسية، ومن زوجها أخذت البشرة الكابية كحزن، ومن جموع المورثين أخذت الفم الكبير والشفاه الغليظة والأذنين الملتحمتين بأطراف شعر الرأس والخصر المهصور كأرنب مسلوخ، والأطراف الوزغة، والأعضاء القاصرة، ومن الريح أخذت صوتي، ومن الشيطان الرجيم أخذت نفسي المعاناة بتمردها، ومن الله أخذت نفسي الأمارة بالعشق.

خيوط الشمس أول من عشقت، لبريقها يدان تحتضنان النماء والحياة، لوهجها إرادة آسرة، لاعتلائها كبد السماء سطوة خالدة، لدفئها قدسية دمعة يتيم، أدمنت على أن أدفنها في عميق عيني، لاحقتها بنظراتي الفضولية التي لا تعرف الملل ليل نهار، وعندما أصاب حريقها عيني بالمرض، منعوني عنها بقوتها المفروضة على طفولتي الرضيعة في المهد، ومنعوني الشمس، وأسكنوني الظل، كان عمري وقتها أيام فكان الحرمان والفقد هما أول ما ذقت من الهوى، أضربت بإصرار عن

الرضاع، وأعلنت ثورة على الحليب، وعندما غلبني الجوع، وهزمني العيّ، استسلمت ليدي الجدة الداية ذات الشامة الخضراء، وقبلت ذليلة بمنقوع اليانسون والنعناع بديلاً عن الحليب الذي أضربت عنه للأبد تخليدًا لذكرى حبي الشمس الذي قتل مهده.

عاهدت نفسي يومها على كبت نفسي الأمارة بالعشق،وعلى كبح جماحها، وبررت بعهدي المقدس في عرف طهارة الأطفال لأيام أسطورية فلكية كريهة ثقيلة الخطى، فأصعب ما على النفس أن تعلن حربًا على ذاتها، ونجحت في حربي على الرغم من كثرة القتلى ومواجع الإعدامات والنفي والاضطهاد في وجداني.

وأعلنت التوبة على إثمي الأول في الأرض، ولكنني من جديد اشتهيت الخطيئة والمعصية واللعن، ووقعت في حب كل شيء جميل، وما أكثر الأشياء الجميلة في عينين هما نافذتان على روح تضج بالتفاصيل والألوان والروائح واللمسات والحاجات والأمنيات المؤجلة والأفراح المسروقة من جنة الخلد حيث مسكنها الأول في غامض العدم. عشقت الفراشات الملونة، وزرقة السماء، وثورة البحار، وصخب المحيطات، وسكون قيعان النفوس، أخلصت في مشاعري وبري لكل وجوه الأمهات وأيادي الجدات.

يا الله يا جبار، يا خالق الحب، كم كانت طويلة قائمة من عشقت، أنت من وهبتني قلبًا عملاقا، فهبني عمرًا فيه كل الأعمار حتى أكون كاهنة الهيام الخالدة التي أنّى كانت حضرت كل وجوه عشاق الأرض والوطن والسماء والخير غير

المغموس بدم الأبرياء، والآلاف، الآلاف من وجوه الأيتام والمعذبين والمحرومين، ووجوه المستضعفين المنكودين، ووجوه الأيتام، وكل أرغفة الجائعين.

في كل ليلة احترفت تعاطي الممنوع المهرب من الرائق الخالص من المشاعر لعشاقي الذين لا يحصيهم عددًا إلا الرب في عليائه، أحببت كل من قالوا لا، وكل من قالوا نعم تومئ إلى لا، أحببت عليًا ولمبا وجيفارا وماو وصلاح الدين وشجرة الدر والحلاج وجميلة بوحريد ومصطفى كامل وعلى الزيبق ومسرور السياف ومعروف الإسكافي وجعفر الطيار وابن عربي وديك الجن الحمصي وفارس عودة وجان دارك وهانيبال وإليسار والمتنبي وأبا العتاهية وهوميروس والظاهر بيبرس وفراس العجلوني والشريف الرضي ونزار قباني وعمر أبو ريشة وفيكتور هيجو وكل الثائرين باغي الشمس، وأحببت كذلك صبر أمي وأبي، فقد كانا وريثا زمن الجوع والانتظار، ووهبت دموعي لعروس البحر، ولسندريلا صاحبة الحذاء المفقود، وسكت أجساد كل محبوبات رجال الأرض، ودوخت بكلمات كل الشعراء، وحظيت بكل قبُل المقّبلين، ولمسات أكف المشتهين، ولعنات كل الفاعلين وآثامهم، ثم استغفرت الله، فغفر لي، أليس أرحم الراحمين؟؟

ونسيت أسماء كل عشاقي؛ إذ خاط لي ساحر مغربي يهودي آثم حجاب نسيان، فعلقته في رقبتي ليل نهار بخيط قنب، فنسيت كل آثامي وسعاداتي، إلا **مجيدًا** الأبكم، فقد كان حب طفولتي الأول، كان قذر الملابس والجسد شأنه شأن كل المعدمين المنكودين، حرمه النصيب، فأضاع فمه وأذنيه، كان ألعوبة

أشقياء الحارة القديمة حيث أسكن مزروعة بين أشتال أمي، حين أشفقت على عجزه، أشفق على دمامتي، وعلى أنوثتي المكسورة المأسورة في جسدي المزدري، فكانت له دون العالمين قبلتي الأولى، لم يكن ممن يحفظون فطريًا أبجدية الإسعاد ولغة الجسد، ولكن كان عنده أبلغ صمت، وأحر دمعه، وأنا أحب الدموع، أجمعها في قوارير شفافة، واصنع منها ترانيم الفرح.

أحببت **مجيدًا** حتى احتل جارنا ذو العضلات المفتولة والشعر الخيلي مكانه في قلبي، كان يصطحبني معه إلى السينما مع بناته الخمس المنحوتات بعناية إلهية واضحة على هيئة دمى جميلة، كان يعدني ابنته، ويشفق على استحياء على أنوثتي القرد، وكان كلما حملني بيديه القويتين، ووضعني في مقعد قاعة العرض في السينما الذي لا تصل قدماي إلى قاعدته، فيتمرجح شبشبي البلاستيكي البرتقالي القديم في الهواء، أحلم بأن أملكه روحًا وقلبا، وأعد بإخلاص خصل شعره الذهبية بقصائد خالدة، لكنه ما كان ليبالي بصغيرة بشبشب برتقالي وإن أهدته قصيدة.

أما **جابر** فكان معنيًا بالقصائد والكلمات، ولها دفع عمره، أنا أحببت **جابرًا**، ولكنه أحب الكلمات أكثر مني وكتب القصائد، وثور الساكنين، وحمل السلاح، ومات مشبوحًا على دكة التعذيب، وما قال لا، فتوحمت عليه كل النساء الحبالى، وحملت منه العذارى بالثائرين دون أن يلمسهن، فغدا لي جيش من الضرائر والمنافسات، وأنا كمسلة في كف قتيل، لا أحب

الشركاء، فلتحب كل النساء **جابرًا**، وليحبه الوطن، أما أنا فلي أن أعانق الفقد.

للحق سرعان ما غار أسم حامد بين حشد أسماء قائمتي الحاضرة الغائبة، حيث حسان الهبيلة، وجبر أبو ريحة، وسلمان أبو بربور، وعباس اللص، وكايد اللقيط الذي يعيش في دار الأيتام، ولا يعرف له ماضيًا أو حاضرًا أو مستقبلا، وحسين الذي يعيش في علبة كرتون بجوار كلبه الأعور، ومخلد الأدغ الذي يقلب الراء غينًا، وناصر ابن الوالي الذي يصلي دون وضوء، ويعاشر بنات الهوى في حوزة أبيه العلمية، وكيمو المخنث الممزق بين عالمي الأنوثة والرجولة، وسليمان الغجري الذي يحب قرده وموسيقاه ورحيله المتصل أكثر مني، وطارق الذي يعيش مع دزينة أخوة صغار في غرفة صغيرة في مخيم نسيه النسيان، وعدد كبير من أولاد الجيران والمدينة والدراسة الذين ما عدت أحفظ أسماءهم أو أتذكر وجوههم، ولا سوء في ذلك، فللعشاق جميعًا وجه واحد واسم واحد، ومن حفظ اسمًا واحدًا منها، فقد حفظ كل الأسماء.

وبقي اسم حبيبي الخالد الذي يجيء ولا يجيء مرقومًا في المجهول، وفي انتظاره اجتهدت أن أتعلم مهنة الخياطة كي أطرح على من أحب عباءة من صنعي، أشك فيها سيلا من النجوم والكواكب والمجرات.

وسريعًا أتقنت الخياطة؛ فقد كنت أتمثل في تعلمي لها حكمة: "من يدرز ينجح"!!! ونجحت؛ لأنني درزت دون توقف ليل نهار، وصنعت بعد سنين عجاف عباءة الغائب المتأخر. طويتها على غير هون، ومسّدت عليها بعطفي الخفي، وغلفتها بتعويذة

أثيرة، وانتظرت أن يأتي الحبيب، ومرّ العمر، وشاب الشعر الأجعد، وتقبض الأديم، وتقوس الجسد الهزيل ذو المشية الطاووسية المزعومة، وغادرني ضيف لذيذ حلو اسمه الشباب.

واعترافًا بريادتي وتمردي، فقد عينت رئيسة فخرية لحزب الحب، ولرابطة المشاعر الجياشة، ولدارة العواطف، ورئيسة تحرير لمجلة السعداء، ومستشارة في محطة المحظوظين الفضائية، فضلا عن تأليف كتاب موسوعي عن العشق وطرائقه وأبوابه ومنافذه، وبات شعري مريديّ في الحياة قول الشاعر:

ما تبت عن عشقي ولا استغفرته ما أسخف العشاق إن هم تابوا!!

ولكنني كنت أجزم بأن الله سيغفر لي، نعم سيغفر، لأنني على الرغم من كل قصص عشقي لم أعشق قط، فأنا إمرأة تملك كل الحكايا عباءات الانتظار، لكنها أبدًا لا تملك حكاية لها مع حبيب غير ورقي، وهذا قدر النفس الأمارة بالعشق والمولعة بكتابة الرجال الذين لا يأتون حقيقة إلا على الورق، ولا شيء غير الورق، فنفسي أمارة بالكتابة أيضا!!

القصة	المؤلف
حمروش الذكر	محمد ناجي - مصر
البحث عن ملكة	محمد العشري – مصر
صلاة واحدة	سها زكي - مصر
لقاءات	عبدو عثمان – سوريا
أكفان بيضاء	زكريا صبح – مصر
صور ممنوعة لإمرأة فوق الشبهات	جليل إبراهيم المندلاوي – العراق
ملاك الغجر	وحيد إبراهيم لفته – العراق
حواء	علاء الدين محمد قنديل – مصر
فردة حذاء	باسم إبراهيم عبدو – العراق
إعترافات عانس	عبد الحميد محمد أسعد – سوريا
فصل من سيرة روائي عاشق	بيانكا ماضية – سوريا
نفس أمارة بالعشق	د. سناء شعلان - الأردن